لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله.

ساق تعالى هذه القصة ليُعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم، قال ابن عباس: هذا مَثَل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمدًا ﷺ وأصحابه، ويشربوا الخمور، وتضرب القينات - المغنيات - على رءوسهم، فأخلف الله ظنهم، فقُتِلوا وأُسِروا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا[1].. ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي إن للمتقين في الآخرة حدائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو حال الدنيا ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أفنُساوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ تعجب منهم حيث إنهم يسوُّون المطيع بالعاصي، والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذه لا يصدر عن عاقل ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾؟ أي هل عندكم كتاب منزل من السماء تقرءون وتدرسون فيه ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ هذه الجملة مفعول لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا يزعمونه من الباطل حيث قالوا: إن كان ثمة بعث وجزاء، فسنعطى خيرًا من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا قال الطبري: وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة[2] ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟ قال ابن كثير: المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون[3] ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكابرين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول، يرفضها المنطق وتأباها العدالة ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكلفون لهم بذلك، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم قال في التسهيل: وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء، فأتوا بهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٤٦.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٢٣.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٣٧.

وأحضروهم حتى نرى حالهم[١]. ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة[٢]

قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شَمَّر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها موضع الشدة[٣] كقول الراجز:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٤٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٣٨. (ش): هذا أحد القولين في تفسير الآية: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقِه، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

وسبب الخلاف في تفسير الآية أنه ليس في ظاهرها أنَّ ذلك صفة لله تعالى؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يَقُل: عن ساق الله، ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقًا نكرة غير مُعَرَّفة ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على أنها ساق الله، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفَسِّر للقرآن. واستدلوا أيضًا بما يلي:

١- إن تنكير الساق في الآية للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يُكشَف عن ساقٍ عظيمة؛ جلَّتْ عظمتُها، وتعالَى شأنُها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه.

٢- إن حمل الآية على الشِّدَّة لا يصح، لأن اللغة في مثل ذلك أن يقال: كُشِفَتِ الشِّدَّة عن القوم، لا كُشِف عنها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥]؛ فالعذاب والشِّدَّة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا يوم القيامة تحدث الشِّدَّة وتشتد، ولا تُزال إلا بدخول الجنة، وهناك - أي في الجنة - لا يُدعَون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشدَّ ما كانت الشِّدَّة.

٣- أنه أخبر أنه يُكشَف عن ساق ويدعون إلى السجود، والسجود لا يصلح إلا لله، فعُلِم أنه هُو الكاشف عن ساقه، وهذا لا يظهر من مجرد لفظة سَاقٍ، بل بالتركيب والسياق وتدبُّر المعنى المقصود. وممَّا يجب أن يُعْلَم أن الذين فسَّروا الآية بالتفسير الأول- أي شدة الهول يوم القيامة - لم ينْفُوا عن الله تعالى صفة الساق التي ثبَتَتْ بها السُنة، لكنهم لم يرَوْا أن الآية دالَّةٌ عليها ولم يعُدُّوها من آيات الصفات، إنما أثبتوا صفة الساق بالسُّنَّة ولا منافاةَ بين القولين، فالله يكشف عن ساقه يوم شدة الهول، وذلك بخلاف المعَطِّلة الذين ينفون صفة الساق، ولا يُثبِتونها لا بالقرآن ولا بالسُّنَّة، بل حمَلُوا الآية والحديث على شدة الأمر. وهذا وإن كان محتملًا في الآية لكنه لا يحتَمَل في تفسير الحديث، لورود الساق مضافة إلى الضمير العائد على الله تعالى: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ». [انظر: «الصواعق المُرسَلة في الرد على الجهْمية والمعطِّلة»، لابن قيم الجوزية (١/ ٢٥٣). «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس، (ص: ٣٢-٣٤)].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٤٩.

لأن ظهر أحدهم يصبح طبقًا واحدًا، وفي الحديث «يَسْجُدُ لِلهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»[١] ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يُدعَوْن إلى السجود وهم أصِحَّاء الجسم مُعَافَوْن فيأبَوْن. قال الإمام الفخر: لا يُدْعَون إلى السجود تعبُّدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويَحُول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دُعُوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل[٢] ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه!! وهذا منتهى الوعيد ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم، إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون قال الحسن: كم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه[٣] قال الرازي: الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنبًا جدَّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم[٤] ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي أُمهلهم وأُطيل في أعمارهم ليزدادوا إثمًا ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد وفي الحديث «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٥] وإنما سمي إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم مُعرِضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئًا من الأجر قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجرًا فيثقل عليهم

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا): أي يصبح عظامًا بلا مفاصل لا ينثني عند الرفع والخفض. ساق المؤلف آخِر هذا الحديث: (يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ) ولم يذكر أوَّلَه (يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ) الذي فيه بيان المراد بالساق. (راجع التعليق السابق).

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٥١.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٦.

(٥) أخرجه الشيخان.

محمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم عن الإيمان[١] ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت،وكان من أمره ما كان ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غمًا وغيظًا بقوله ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو مُلامٌ على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذمومًا ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه[٢] ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم نظر إلي نظرًا كاد يصرعني قال ابن كثير: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويؤيده حديث «لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»[٣] ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك إن محمدًا مجنون، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون؟! ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن، كما بدأها ببيان عظمة الرسول، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين لفظي ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ و ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ لاختلاف الحرف الثاني.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ وحذف المفعول للتهويل.

٣ - صيغ المبالغة في ﴿حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَّشَّاءٍ، مَّنَّاعٍ﴾ وكذلك في ﴿أَثِيمٍ.. زَنِيمٍ﴾.

٤ - الاستعارة القائمة ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ استعار الخرطوم للأنف لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف.

٥ - الطباق بين ﴿الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ وبين ﴿ضَلَّ.. بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٤٠.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٩.

(٣) الحديث رواه أحمد والترمذي قال الترمذي: حسن صحيح. (ش): وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

٧ - التقريع والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ والجُمَل التي بعدها.

٨ - التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبهًا والعكس ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.

٩ - الكناية الرائقة الفائقة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن شدة الهول، وتفاقم الخطب يوم القيامة[1].

١٠ - السجع المرصع المحبوك، كأنه الدر المنظوم اقرأ الآيات الكريمة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ إلخ وتدبر روعة القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): تقدم أن هناك قولين في تفسير الآية: القول الأول: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقِه، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

سُورَةُ الحَاقَّةِ ٦٩ ٥٢

مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الحاقة من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان، وقد تناولت أمورًا عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم، مثل قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون، وقوم نوح، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «إثبات صدق» القرآن وأنه كلام الحكيم العليم، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهم به أهل الضلال.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ..﴾ الآيات.

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم، واندكاك الجبال، وانشقاق السماوات إلخ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآيات.

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه، ويلقى الإكرام والإنعام، ويعطى الكافر كتابه بشماله ويلقى الذل والهوان ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ.. وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ..﴾ الآيات.

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم البليغ بصدق الرسول، وصدق ما جاء به من الله، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزًا، ويثير في النفس الخوف والفزع من هول الموضوع ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ
حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ
وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي
الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾
إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا
هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ
الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ

اللغة: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة سُمِّيَت حاقة لأنها حَقٌّ، مقطوعٌ بوقوعها ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر:

فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حُسُومًا[1]

﴿رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشِّدة والعذاب ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ساقطة القوة، ضعيفة متراخية من قولهم: وهي البناء اذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هَاؤُمُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطْف وهو ما يُجتَنَى من الثمر ويُقطَف ﴿غِسْلِينٍ﴾ صديد أهل النار قال الكلبي: هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عُذِّبوا فهو ﴿غِسْلِينٍ﴾ فِعْلِين[2] من الغَسْل[3]

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣١٩.
(٢) (ش): أي على وزن فِعْلِين.
(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٦.

﴿ٱلْوَتِينَ﴾ عـرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسـمى الأبهـر وفي الحديث «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِى »[١] ﴿حَسْرَةٌ﴾ ندامة عظيمة.

التفسير: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ اسـم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ قاطع، وأمر واقع، لا شـك فيـه ولا جـدال ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ التكرار لتفخيم شـأنها، وتعظيم أمرهـا، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ وما أعلمك يا محمد ما القيامة؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تَرَ ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشـدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال[٢]، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمرٍ أتوا بصيغة الاستفهام يقول: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيـل زيـادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شـيء مُرِيع وخَطْبٌ فظيـع.. ثم بعد أن عَظَّم أمرَها وفخَّم شأنَها، ذكَر مَن كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب، تذكيرًا لكفار مكة وتخويفًا لهـم فقـال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي كـذب قوم صالح، وقـوم هود بالقيامـة، التي تقرع القلـوب بأهوالها ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي فأمَّا ثمود قـوم صالح فأُهلكوا بالصيحة المدمـرة، التـي جـاوزت الحدَّ في الشـدة قال قتـادة: هي الصيحـة التي خرجت عـن حدِّ كل صيحـة[٣] ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي وأما قوم هود فأُهلكوا بالريح العاصفة ذات الصـوت الشـديد وهي الدَّبـور وفي الحديـث « نُصِـرْتُ بِالصَّبَـا وَأُهْلِكَتْ عَـادٌ بِالدَّبُـورِ »[٤] ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي متجـاوزة الحـدَّ في الهبوب والـبرودة، كأنها عتت على خزانها فلـم يتمكنوا من ضبطها[٥]، قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطُّ إلا بمكيال، إلا يـوم نـوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزَّان فلم يكن لهم عليه سـبيل ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٦] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلَّطَها الله عليهم

---

(١) نفس المرجع السابق ٣٠/ ١١٩. (ش): بهذا اللفظ رواه البزار، وابنُ السنِّي، وأبو نعيم في «الطب النبوي»، وصححه الألباني. ورواه البخاري بلفظ: «مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِى أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِى مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ».

(٢) قال «أبو السعود»: والتكرار تأكيد لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحدٍ ولا وهمه.اهـ.

(٣) روي عن مجاهد أن معنى الآية أهلكوا بطغيانهم، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد، «أبو السعود» ٥/ ١٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الريح الشرقية، الريح التي تهب من مشرق الشمس ونُصرَتُه بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعَتْ خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. (وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُورِ:هي الريح الغربية، الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٥) هذا قول علي وهو مروي عن الكلبي وابن عباس.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٢، وقد رفعه القرطبي والصحيح أنه موقوف على ابن عباس. (ش): (رفعه القرطبي): =

سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي كأنهم أصول نخلٍ متآكلة الأجواف قال المفسرون: كانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخُلُ من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟ أي فهل ترى أحدًا من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثرًا؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم قرى قوم لوط حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى[1] ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالفَعْلة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان[2] ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوطٍ رسولهم لوطًا ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي فأخذهم الله أخذةً زائدةً في الشدة، على عقوبات مَن سَبَقهم، كما أن جرائمهم زادت في القُبح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حدَّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذَّب رسله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذِكْر ما حَلَّ بهم من العذاب، زجْرُ هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ[3]، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال قتادة: الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزّ وجّل[4]. ولما ذَكَر قصصَ المكذبين، أَتْبَعه بذِكْر أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإذا نفَخ إسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضُرِب بعضُها

= أي ذكره منسوبًا إلى النبي ص. وما ذكره القرطبي رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» بإسناد ضعيف. والكلام المنسوب لابن عباس رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف أيضًا.

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٤٠.

(٢) وقال مجاهد: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يفعلونها. (ش): فَعْلَة: اسم مرَّة من فعَلَ: كلمة يُشار بها إلى العمل المُستَنكَر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٦٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٢.

ببعضٍ حتى تندقَّ وتتفتَّت وتصير كثيبًا مهيلًا[١] ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، فاذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعًا مما داخَلَهم من هوْلِ ذلك اليوم[٢]، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رءوسهم وقال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله[٣] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحدٌ، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر ثم بَيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي فيقول ابتهاجًا وسرورًا: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَابِيَهْ﴾ هاء السكت[٤] وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ قال الرازي: ويدل قوله ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله[٥] ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان، والعمل الصالح قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل[٦] وقال الضحاك: كل ظنٍ في القرآن من المؤمن فهو

---

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي وتصبح الجبال على صلابتها تَلًّا من الرَّمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة.

(٢) (ش): داخَلَ الأمرُ فُلانًا: تَسَرَّبَ إلى نفسه ووقَع فيها.

(٣) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر، ويؤيده حديث «حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قَوَاهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وانظر «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٨. (ش): هذا الحديث رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسنادٍ ضعيف.

(٤) (ش): هاءُ السَّكْت - وتسمى: هاء الاستراحة: هاءٌ تُضاف في نهاية الكلمة بعد حركةٍ طويلة أو قصيرة عند الوقف مثل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].
(اقْتَدِهْ): اقْتَدِ. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠] (مَا هِيَهْ): مَا هِيَ. فنادَيتُ القبور فلَم يُجِبْنَهْ، (فلم يُجِبْنَهْ): فلَم يُجِبْنَ. غَامَتِ السَّماءُ وَلَمْ تَصْفُهْ. (وَلَمْ تصْفُهْ): لم تَصْفُ.
(عَمَّهْ؟): عَمَّ؟ (لِمَهْ؟): لِمَ؟ (فِيمَهْ؟): فِيمَ؟

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١١.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٠.

يقين، ومن الكافر فهو شك[١].. قال تعالى مبينًا جزاءه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح «أنهم يعيشون فلا يموتون أبدًا، ويصحون فلا يمرضون أبدًا، وينعمون فلا يرون بؤسًا أبدًا»[٢] ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في جنةٍ رفيعة القدر، وقصور عالية شاهقة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع قال في التسهيل: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع[٣] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم تفضلًا وإنعامًا: كلوا واشربوا أكلًا وشربًا هنيئًا، بعيدًا عن كل أذى، سالمًا من كل مكروه ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا.. ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي يا ليت الموتة الأولى التي مِتُّها في الدنيا، كانت القاطعة لحياتي، فلم أبعث بعدها ولم أُعذب قال قتادة: تمنى الموت[٤] ولم يكن شيء عنده أكره من الموت، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمرَّ ممَّا ذاقه من الموت ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئًا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده الى عنقه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَغُلُّوهُ﴾[٥] ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي ثم أَدْخِلوه النار العظيمة المتأجِّجة، ليَصْلَى حرَّها ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي ثم أدخلوه في سلسلةٍ حديدية طولها سبعون ذراعًا قال ابن عباس: بذراع الملَك، تدخل السلسلة من دبره،

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) (ش): عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» (رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني). (مِلاط): طينٌ يُجعل بين حجرين في البناء، مؤنة البناء. (أَذْفَر): أي: طيِّب الريح.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٣. (ش): قال البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه في هذه الآية قطوفها دانية: «يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد صحيح).

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٩.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٢.

وتخرج من حلْقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه[١] والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكًا. لمّا بيَّن العذاب الشديد بيَّن سببه فقال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي كان لا يصدِّق بوحدانية الله وعظمته[٢] قال في البحر: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليلٌ مستأنف كأن قائلًا قال: لم يعذِّب هذا العذاب البليغ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله[٣] ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحُثُّ نفسه ولا غيره على إطعام المسكين قال المفسرون: ذكر الحضَّ دون الفعل للتنبيه على أن تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الإحسان والصدقة؟ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشَوْنه، ويفرُّون منه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم[٤] ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام قال المفسرون: ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعَمَّد الذنب، والمخطىء الذي يفعل الشيء خطأً دون قصد، ولهذا قال ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ ولم يقل المخطئون.. ولما ذكر أحوال السعداء من أهل الجنة، ثم أحوال الأشقياء من أهل النار، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أُقسم بما ترونه وما لا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار[٥]، و ﴿لَا﴾ في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لتأكيد القسم وليست نافية[٦] قال الإمام الفخر: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمين: مبصرٍ وغير مبصر، فشملت الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة[٧] قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلَّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٤، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو؟.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٦.

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس، وقال قتادة: شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٦) هذا هو القول الراجح بدليل ذكر جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقيل: إنها نافية كأنه قال: لا يحتاج الأمر إلى قسم لوضوح الحق وسطوعه.

(٧) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١١٦.

مـن آثار القدرة، وما لا تبصرون من أسـرار القـدرة[١] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي إن هذا القرآن لـكلام الرحمـن، يتْلوه ويقرؤه رسـولٌ كريم، هـو محمد عليـه أفضل الصلاة والتسـليم قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تَالِيه ومُبَلِّغُه عن الله تعالى[٢] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ أي وليـس القرآن كلام شـاعر كما تزعمون، لأنه مُبَايِنٌ لأوزان الشـعر كلها[٣]، فليس شعرًا ولا نثرًا ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ أي قلَّما تؤمنون بهذا القرآن قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقـون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون بـه أصلًا، والعرب تقول: قلَّما يأتينا يريدون لا يأتينـا[٤] ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖ﴾ أي وليـس هو بقول كاهـنٍ يدعي معرفة الغيـب، لأن القرآن يُغَاير بأسـلوبه سـجع الكهان[٥] ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قلَّما تتذكرون وتتعظون ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي هـو تنزيـلٌ من ربِّ العزة جل وعـلا كقوله تعالـى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء] والغـرض من الآية تبرئة الرسـول ﷺ مما نسـبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة، ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان علـى أن القـرآن من عنـد الله فقـال ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ أي لو اختلقَ محمـد الأقوال، ونسبَ إلينا ما لم نَقُلْه ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي لانتقَمْنا منه بقُوَّتنا وقُدرتنا[٦] ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ٥٢.

(٢) القرطبي ١٨/ ٢٧٤.

(٣) (ش): مُبَايِنٌ: مُخَالِفٌ.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٧.

(٥) (ش): يُغَاير: يُخَالِف.

(٦) هذا قول ابن عباس ومجاهد. (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٩٢ -٥٩٣): ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ يقول: لأخَذْنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لَقطعنا منه نِيَاط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾: لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه؛ قالوا: وإنما ذلك مَثَلٌ، ومعناه: إنا كنا نذله ونهينه، ثم نقطع منه بعد ذلك الوتين، قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه، خذ بيده فأقِمْه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي لَأَهَنَّاه كالذي يُفعَل بالذي وصَفْنا حالَه» اهـ. والنِياط: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٨): ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ، وَقِيلَ: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينِهِ» اهـ. إذن في تفسير الآية قولان: ١- قول ينسب اليمين لله. ٢- قول يقول: إن معنى الآية: لأخذنا بيده اليمنى، والأخذ في الآية معناه الإهانة والإذلال. وليس في أحد القولين تأويل بمعناه الاصطلاحي أي: إخراج النص عن ظاهره، إذ كِلا القولين في تفسير الآية محتمَل من غير مرجِّح لأحدهما، فيمكن أن يكون المعنى لأخذنا بيمينه أي بيمين العبد، ويمكن أن يقال لأخذنا منه باليمين، أي: بأيماننا، ويمكن أن يقال أن المراد بأيماننا أي: بأيدينا، ويمكن أن يكون المعنى مجازيًا بمعنى القوة والقدرة، وهذه الآراء سائغة في تفسير الآية، والقول بأنَّ هذه التفاسير تأويلٌ للنصِّ غيرُ صحيح، فإن دلالة النص غير قطعية ولا ظاهرة في معنى خاص، وإنما النص بذاته محتمَل، فالقول بأحد القولين السابقين في تفسير الآية ليس تأويلًا بالمعنى الإصطلاحي، وإنما هو من خلاف التنوع في التفسير. =

أي ثم لقطعنا نِيَاطَ قلبه[١] حتى يموت قال القرطبي: والوتين عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه[٢] والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئًا ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذٍ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى: إن محمدًا لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لَعَاقَبناه، ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه[٣] ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين والمتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين، وفي الآية وعيدٌ لمن كذب بالقرآن[٤] ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي وإنه لَحَقٌّ يقينيٌّ لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿الْحَاقَّةُ﴾ إلخ.

٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ﴾ الآية وفيه لف ونشر مرتب.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ الطغيان من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء وكثرته، بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة.

٥ - جناس الاشتقاق مثل ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ومثل ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

٦ - المقابلة البديعة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا

= وقد ثبتت صفة اليد اليمنى لله بنصوص أخرى دالة على حقيقة اليد من القرآن والسُّنَّة الصحيحة. فقد وردت صفة اليد مضافة لله في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فأثبتت هذه الآية صفة اليدين لله تعالى، ووصفتهما بالبسط دلالة على سعة الكرم والعطاء. وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. والمسلم عند إثباته صفة اليد لله وغيرها يجب عليه تجنب كل سبيل لتخيُّل هذه الصفة أو تلك، فالله ليس كمثله شيء، وصفاته ليست كصفات المخلوقين.

(١) (ش): النِياط: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٦.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٤٨.

(٤) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن. وقال الطبري: وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين، وهو قول مقاتل.

مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ..﴾ الخ وهي من المحسنات البديعية.

٧ - طباق السلب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٨ - الكناية ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة[1].

٩ - توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات مثل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ومثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع والله أعلم.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: خرجت أعترض سول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال فقلت في نفسي: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الخ السورة، قال: فوقع في قلبي الإسلام كل موقع، حتى هداني الله تعالى له.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): راجع التعليق على تفسير الآية.

سُورَةُ المَعَارِجِ ٧٠ ٤٤

مكية وآياتها أربع وأربعون

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة، وراحة ونصب، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين، في دار الجزاء والخلود، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خُوفوا به، وذكرت مثلًا لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو «النضر بن الحارث» حين دعا أن ينزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة، وذلك مكابرة في الجحود والعناد ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تنفطر فيه السماوات، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملون ألوانًا غريبة ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـَٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان، فإنه يجزع عند الشدة، ويبطر عند النعمة، فيمنع حق الفقير والمسكين ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات، وفضائل الأخلاق، وبينت ما أعد الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيرًا منهم ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ...﴾ إلى قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَٰٓئِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ
قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ
الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ
الْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾
وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾
فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ
﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ
يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ

اللغة: ﴿الْمَعَارِجِ﴾ المصاعد والمدارج التي يرتقي بها الإنسان جمع مِعْرَج وهو المصعد، والعروج الارتفاع إلى السماء ومنه معراج النبي ﷺ ﴿كَالْمُهْلِ﴾ النحاس المذاب ﴿كَالْعِهْنِ﴾ الصوف المنفوش ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ الفصيلة: العشيرة الذين فُصِل عنهم وتوَلَّد منهم ﴿لَظَىٰ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن نيرانها تتلظى؛ أي: تلتهب ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس قال الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لَهُ ... قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهْ[1]

﴿هَلُوعًا﴾ كثير الجزع والضجر، قال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسَّه الخير لم يشكر، وإذا مسَّه الضر لم يصبر[2] ﴿عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين جمع عِزَة وهي الجماعة المتفرقة قال الشاعر:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا[3]

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٨. (ش): جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ: أي غَطَّى الشَّيْبُ جلدةَ رأسِه.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٠.
(٣) روح المعاني ٢٩/ ٦٤. (ش): يُهْرَعُونَ: يُسرِعون.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون يقال: أوفض البعير اذا أسرع السير[١].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس أن النضر بن الحارث قال حين خوَّفهم رسول الله ﷺ من عذاب الله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأنزل الله ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾[٢].

التفسير: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع من كفار مكة لنفسه ولقومه عذاب واقع لا محالة قال المفسرون: السائل هو «النضر بن الحارث» من صناديد قريش وطواغيتها، لمَّا خوفهم رسول الله عذاب الله قال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأهلكه الله يوم بدر، ومات شرب ميتة، ونزلت الآية بذمه ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي دعا بهذا العذاب على الكافرين ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي لا رادَّ له إذا أراد الله وقوعه، وهو نازل بهم لا محالة، سواءً طلبوه أو لم يطلبوه، وإذا نزل العذاب فلن يرفع أو يُدفع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي هو صادر من الله العظيم الجليل، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه، ثم فصَّل ذلك بقوله ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد الملائكة الأبرار وجبريل الأمين[٣] الذي خصه الله بالوحي إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي في يوم طوله خمسون ألف سنة من سِنِي الدنيا[٤] قال ابن عباس: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار[٥] قال المفسرون: الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة، وأن هذه المدة الطويلة تخف على المؤمن حتى تكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة[٦] ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي فاصبر يا محمد على استهزاء قومك وأذاهم ولا

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٢.

(٢) (ش): عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما-؛ قال في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾: «هو النضر بن الحارث بن كلدة». (حسن، رواه النسائي في «تفسيره»، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي).

(٣) إنما أفرد جبريل بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمى بالروح لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

(٤) (ش): حُذفت النون للإضافة. فكلمة «سنون» تُرفع بالواو، وتنصب وتجر بالياء، لأنها ملحقة بجمع المذكر السالم، وذهب قومٌ منهم الفراء إلى أنه يجوز في سنين أن تلزمها الياء ويكون الإعراب على النون فتقول: هذه سنينٌ، ورأيت سنينًا، ومررت بسنينٍ. وهي لغة غير مشهورة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٢.

(٦) أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ما أطول هذا اليوم! فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا». (ش): رواه أحمد وابن حبان بإسناد ضعيف. (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج =

تضجر، فإن الله ناصرك عليهم، وهذا تسليةٌ له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، لأن استعجال العذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ فأمره الله بالصبر قال القرطبي: والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله[1] ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي إن هؤلاء المستهزئين يستبعدون العذاب ويعتقدون أنه غير نازل، لإنكارهم للبعث والحساب ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي ونحن نراه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب. ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته وعن أهوال يوم القيامة فقال ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي تكون السماء سائلة غير متماسكة، كالرصاص المذاب قال ابن عباس: كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ أي كَعَكَرِ الزَّيْتِ[2] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة، كالصوف المنفوش إذا طَيَّرَتْهُ الريح قال القرطبي: العهن الصوف الأحمر أو ذو الألوان، شبَّه الجبال به في تلونها ألوانًا، وأول ما تتغير الجبال تصير رملًا مهيلًا، ثم عهنًا منفوشًا، ثم هباءً منثورًا[3].. هذه حال السماء والأرض في ذلك اليوم المفزع، أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل صديق صديقه، ولا قريب قريبه عن شأنه، لشغل كل إنسانٍ بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والفزع ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم ويعرفونهم، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته، فلا يسأله ولا يكلمه بل يفر منه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] قال ابن عباس: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم، ثم يفرُّ بعضهم من بعض[4] ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي يتمنى الكافر مرتكب جريمة الجحود والتكذيب لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابنٍ، وزوجةٍ، وأخٍ ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي وعشيرته التي كانت تضمه إليها،

= ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام وأحسن ما يقال فيها إن اليوم الذي ذُكِر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وإن آية المعارج هي في يوم القيامة. قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم –: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٤.

(٢) وهذا قول مجاهد كذا في «الطبري» ٢٦/ ٤٦. (ش): (عَكَرُ الزَّيْتِ): الدَّنَسُ والدرن الذي تحت الزيت.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٥. (ش): قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] أي رمْلًا سائلا متناثرًا. وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] أي كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هبَاء ويزُول. وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦] وفُتِّتَتْ الجبال تفتيتًا دقيقًا، فصارت غبارًا متطايرًا في الجو قد ذَرَتْه الريح.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٦/ ٤٦.

ويتكل في نوائبه عليها، وليس هذا فحسب بل يتمنى لو يفتدي بجميع أهل الأرض ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله، ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب، وفادح الخطب، قال الإمام الفخر: ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه[1] ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ أداة زجر وتعنيف أي لينزجر هذا الكافر الأثيم وليرتدع عن هذه الأماني، فليس ينجيه من عذاب الله فداء، بل أمامه جهنم، تتلظَّى نيرانها وتلتهب ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس[2] من الإنسان كلما قلعت عادت كما كانت زيادة في التنكيل والعذاب، وخصَّها بالذكر لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثرًا بالنار ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن، وأعرض عن الإيمان، قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب[3] ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق، ولم يؤد منه حقَّ الله وحق المساكين قال المفسرون: والآية وعيدٌ شديد لمن يبخل بالمال، ويحرص على جمعه، فلا ينفقه في سبيل الخير، ولا يخرج منه حق الله وحقَّ المسكين، وقد كان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم سمعتَ وعيدَ الله ثم وعيت الدنيا جمعتها من حلالٍ وحرام!! ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، وما جبل عليه من الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر، لا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء قال المفسرون: الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاعَ فهَلِعَ[4]، والمراد بالإنسان العموم بدليل الاستثناء، والاستثناء معيار العموم، ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرض، أو خوف، كان مبالغًا في الجزع مكثرًا منه، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى، وصحة وسعة رزق كان مبالغًا في المنع والإمساك، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أغناه الله لم ينفق قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره، ويهرب مما يكرهه، ثم تعبَّده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره[5] ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع، لأن صلاتهم تحملهم

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٧.

(٢) هذا قول ابن عباس وقال مقاتل: تنزع النَّارُ الهامَة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جِلدًا إلا أحرقَتْه.

(ش): الهامة: الرَّأس.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٩.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٨.

(٥) «تفسير البغوي» ٤/ ١٥١.

علـى قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شـرها ولا يبخلـون بخيرها ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل، لأن نفوسهم صَفَتْ من أكدار الحياة، بتعرضهم لنفحات الله ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي في أموالهم نصيبٌ معيَّن فرضه الله عليهـم وهو الزكاة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أي للفقير الذي يسـأل ويتكفف الناس، والمحروم الذي يتعفف عن السـؤال، فيُظَـنُّ أنه غني فيُحرَم كقولـه تعالى ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقـرة: ٢٧٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يؤمنـون بيـوم الحسـاب والجزاء، ويصدِّقون بمجيئه تصديقًا جازمًا لا يشـوبه شـك أو ارتياب، فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ أي خائفـون علـى أنفسـهم مـن عـذاب الله، يرجـون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان، إلاَّ من أمنَّـه الرحمـن والأمور بخواتيمها.. إنَّ هؤلاء المصدقين المشـفقين قلَّمـا تَزدَهِيهم الدنيا، أو يُبْطِرهم نعيمها[1]، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها، فسواءٌ عليهم أخسروا حظوظ الدنيا أم غنمـوا، إذ إن لديهـم من الفكـر في جلال ربهم، وذِكْر مَعادهم، ما يشـغلهم عـن الجزع إذا مسَّـهم الشـر، ويربـأُ بهم عـن المنع[2] إذا مسـهم الخيـر، ثم ذكـر تعالى الفريـق الخامس من الموفقيـن للخيرات وفعل الطاعات فقال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ أي أَعِفَّاء[3] لا يرتكبون المحارم، ولا يتلوثون بالمآثم، قد صانوا أنفسـهم عـن الزنى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي يقتصـرون علـى مـا أحلَّ الله لهم مـن الزوجات المنكوحـات، والرقيقات المملـوكات ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهـم غير مؤاخَذين لأن وضْع الشـهوة فيمـا أباح الله من الزوجـات والمملـوكات، حـلالٌ يُؤْجَـر عليه الإنسـان، لما فيه مـن تكثير النسـل والذرية[4]

---

(١) (ش): ازدهَى الشَّخصَ: حَمَلَه على العُجْب. أبطرهُ المالُ ونحوُه: جعله متكبِّرًا طاغيًا، جعله يغالِي في زهْوه واستخفافِه ويتغطرس.

(٢) (ش): أي يرفعُهم ويُنزِّهُهم عن المنع.

(٣) (ش): جمع عفيف.

(٤) (ش): عَـنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًـا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُـولَ اللهِ، ذَهَـبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّـونَ كَمَـا نُصَلِّـي وَيَصُومُونَ كَمَـا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُـونَ بِفُضُـولِ أَمْوَالِهِمْ. قَـالَ «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَـلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُـونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْـبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيـرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَـةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُـولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَـهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْـرٌ قَـالَ «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَـرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَـلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». (رَوَاهُ مُسْـلِمٌ). الدُّثُـورُ: جَمْعُ دَثْرٍ، وَهُوَ الْمَـالُ الْكَثِيرُ. (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) الْبُضْـعِ يُطْلَقُ عَلَى الْجِمَاعِ وَيُطْلَقُ عَلَى الْفَرْجِ نَفْسِهِ وَكِلَاهُمَا تَصِحُّ إِرَادَتُهُ هُنَا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجِمَـاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَـرَتَهَا بِالْمَعْـرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوَ الْفِكْرِ فِيهِ أَوِ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ. [انظر: شرح النووي على مسلم (٧/ ٩١- ٩٢)].

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فقد تعدَّى حدود الله وعرَّض نفسه لعذاب الله قال الطبري: من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلوا ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم، إلى ما حرَّمه عليهم، فهم المَلُومون[1] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا ائتُمِنوا لم يخونوا، وإذا عاهَدوا لم يغْدُروا ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يشهدون بالحق على القريب والبعيد، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيرونها، بل يؤدونها على وجهها الكامل، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحه، وخصَّها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، تنبيهًا على فضلها لأن في إقامتها إحياء للحقوق، وفي تركها تضييع للحقوق ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم مِن خُلُق الهَلَع المذموم أي يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها، وإلاَّ كانت حركات صورية لا يجني العبدُ ثمرتَها، فإن فائدة الصلاة أن تَكُفَّ عن المحارم ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2] [العنكبوت:٤٥]

ولما كانت الصلاة عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت في أول الخصال الحميدة وفي آخرها، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني عليها الإسلام[3]، قال القرطبي: ذكر تعالى من أوصافهم في البدء ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم قال في الختم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها[4]، وبعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين المتقين، ذكر مآلهم وعاقبتهم فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٥٣.

(٢) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» (رواه أحمد، وصححه الألباني).

أما حديث: «مَن لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعدًا» أو «فلا صلاة له»، فحديث لا يثبت، وقد رواه الطبراني، وابن أبي حاتم، قال الألباني: «وهو مع اشتهاره على الألسنة لا يصح مِن قِبَل إسنادِه، ولا من جهة مَتْنه... فأنت ترى أن النبي ﷺ أخبر أن هذا الرجل سينتهي عن السرقة بسبب صلاته - إذا كانت على الوجه الأكمل طبعًا كالخشوع فيها والتدبر في قراءتها - ولم يقل: إنه « لا يزداد بها إلا بعدًا «مع أنه لَمَّا ينتَهِ عن السرقة». [انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١/ ٥٤، ٥٨)].

(٣) قال ابن كثير: افتتح تعالى الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها. اهـ. «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٢.

الأوصاف الجليلة، والمناقب الرفيعة، مستقرون في جنات النعيم، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات، مع الإنعام والتكريم بأنواع المَلاذّ والمشتَهَيات، لاتِّصَافهم بمكارم الأخلاق ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾؟ أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين، مسرعين نحوك يا محمد، مادِّينَ أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك؟ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا، يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت الآية[1] ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي جالسين عن يمينك وعن شمالك فرقًا فرقًا، وجماعات جماعاتٍ يتحدثون ويتعجبون؟ قال أبو عبيدة: عزين أي جماعاتٍ جماعاتٍ في تفرقة، ومنه «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ، أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا»[2] ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ استفهام إنكاري مع التقريع والتوبيخ، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار، أن يدخله الله جنات النعيم، وقد كَذَّب خاتمَ المرسلين؟ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر أي ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبدًا ثم قال ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقذرة، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، فمن أين يتشرفون بدخول جنات النعيم قبل المؤمنين، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة؟ وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي من القذر فلا يليق بهم هذا التكبر[3] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغِلْ أنت بما أُمِرْتَ به، وهو أمرٌ على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ ويوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسعَون ويستبِقُون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، شبَّه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب، بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا، إلى آلهتهم وطواغيتهم، وفي هذا التشبيه تهكُّمٌ بهم،

---

(١) انظر «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٥، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٥٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨/ ٢٩٣ والحديث أخرجه مسلم. (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَرَآنَا حِلَقًا فَقَالَ «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ». قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟». قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (فَرَآنَا حِلَقًا) - بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا- جَمْعُ حَلْقَةٍ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٤.

وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلًا من الله ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم!!

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿بَعِيدٗا.. قَرِيبٗا﴾ وبين ﴿ٱلۡيَمِينِ.. ٱلشِّمَالِ﴾ وبين ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ وكذلك ﴿ٱلۡمَعَارِجِ.. تَعۡرُجُ﴾.

٣ - ذكر الخاص بعد العام تنبيهًا لفضله وتشريفًا له ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ الورح هو جبريل.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ لحذف وجه الشبه.

٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ.. وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف.

٦ - المقابلة اللطيفة ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ قابله بقوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

٧ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾؟

٨ - الكناية الفائقة الرائقة ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ كناية عن المني القذر، مع النزاهة التامة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير، بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإسراع في عبادة غير من يستحق العبادة.

١٠ - السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الخ.

تنبيه: نبَّه تعالى بقوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الآيات. إلى طبائع البشر، فبيَّن أنَّ الإنسان يتسرع إلى مشتهاه، اتباعًا لهواه، وأنه مفرط في الهلع والجزع، فإن مسه خير شحت به نفسه، وإن نزل به شر اشتد له قلقه، ثم استثنى من ذلك الخُلُق الذميم أصنافًا من البشر، وهم الذين جمعوا مع الإيمان صالحَ الأعمال[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخلٌ في حقيقته، وعطفُه على الإيمان من عطفِ الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾.

سُورَةُ نُوحٍ

٧١ ٢٨

مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة نوح مكية، شأنها شان سائر السور المكية التي تعني بأصول العقيدة، وتثبيت قواعد الإيمان، وقد تناولت السورة تفصيلًا قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه، وهذا سميت «سورة نوح»، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله، وبيان لعاقبة المرسلين، وعاقبة المجرمين، في شتى العصور والأزمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوح عليه السلام، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح، وصبره، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوى، فقد دعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانًا في الضلال والعصيان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

* ثم تابعت السورة تذكرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام، ليجدوا في طاعة الله، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾!!

* ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما لانت قلوبهم، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾

اللغة: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ﴾ غطوا غشَّاه أي غطاه، والغشاء الغطاء ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ غزيرًا متتابعًا ﴿أَطۡوَارًا﴾ أحوالًا مختلفة طورًا بعد طور قال الشاعر:

وَالْمَرْءُ يُخْلَقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارِ[1]

﴿فِجَاجًا﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كُبَّارًا﴾ كبيرًا بالغ الغاية في الكِبَر ﴿دَيَّارًا﴾ أحدًا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿تَبَارٗا﴾ هلاكًا ودمارًا.

التفسير: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي بعثنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب قال الألوسي: واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل[2] ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي بأن خوِّف قومك وحذِّرهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم، وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي فدعاهم إلى الله وقال لهم: إني لكم منذر، موضح لحقيقة الأمر، أُنذركم وأُخوفكم عذاب الله، فأمري واضح ودعوتي ظاهرة قال المفسرون: نوح عليه السلام أول نبي أرسل،

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٧.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ٦٩.

ويقال له: شيخ المرسلين، لأنه أطولهم عمرًا فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] يدعوهم إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى نهايتها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، واكثروا من البغي والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحًا عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به، يمح الله عنكم ذنوبكم التي اقترفتموها، وإنما قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم التي حصلت قبل الإسلام، لأن الإيمان يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده[1] ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويمُدّ في أعماركم إن أطعتم ربكم، إلى وقت مقدر ومقرر في علم الله تعالى، مع التمتع بالحياة السعيدة، والعيش الرغيد قال المفسرون: المراد بتأخير الأجل هو التأخير بلا عذاب، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذي كتبه وأثبته[2] ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاقت عليه الحيل: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة، في الليل والنهار، من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هربًا، وشرودًا عن الحق، وإعراضًا عنه.

ثم وَصَف نفورَهم وصَوَّر إعراضَهم أبلغَ تصوير فقال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي لك لما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، ليظهر قبح إعراضهم عنه، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم[3] ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي

(١) هذا ما رجحه أبو حيان في البحر، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى لكم جميع الذنوب، والأول أرجح.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٤٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٩.

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي غطوا رءوسهم ووجوههم بثيابهم، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني قال في البحر: والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطَّوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه، كراهة وبغضًا من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره[1] ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكبارًا عظيمًا، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارًا﴾ أي دعوتهم علنًا على رءوس الأشهاد، مجاهرًا بدعوتي لهم دون خوف أو تحفظ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾ أي أخبرتهم سرًا وعلنًا، خيفةً وجهرًا، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك قال المفسرون: والعطف بثُمَّ يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار، ثم وضح ما وعظهم به سرًا وعلانية فقال ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي آمِنوا باللهِ وتوبُوا عن الكفر والمعاصي، فإن ربكم تواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيرًا متتابعًا، شديد الانسكاب[2] ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها.. أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، ولبيان أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع، ثم عاد فهزَّ نفوسهم هزًا، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا ترهبون له جانبًا! قال ابن عباس: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[3] ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة، وأدوار متباينة، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، إلى سائر الأحوال العجيبة، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية، المنبثة في هذا الكون الفسيح فقال

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٨.

(٢) (ش): انسَكَب الماءُ ونحوُه: انصَبَّ وسالَ.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٥٩.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة بعضها فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان! ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا، منورًا لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر: القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحائها، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذا ههنا[1] وقال في البحر: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفًا للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول زيد في المدينة وهو في جزء منها[2] ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ أي وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولما كان نور الشمس أشدّ، وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ بعد أن ذكر دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك لأن في ذِكْر هذه الأمور، دلالة واضحة على عظمة الله، وقدرته وباهر مصنوعاته. والمعنى: خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يَخرج النبات، وسَلَّكم من تراب الأرض كما يُسَلُّ النبات منها[3] قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمى خلقهم وإنشاءهم إنباتًا، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض[4]

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٤٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠. أقول: ليس ثَمَّةَ نَصٌّ صريح على أن القمر داخل السماوات إلا هذا النص، وقد عرفتَ تأويله، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء، وجعلها في السماء الدنيا: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ فإنه لا يُستبعد أن يصل الناس إلى القمر، لأنه دون السماء الأولى، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك، فليس ثَمَّةَ محظورٌ ديني على غزو الكواكب والفضاء، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خرط القتاد لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾.
(ش): القَتاد: شجر صلب له شوك كالإبَر. والخرْط: التقطيع. دونه خَرْط القَتَاد: مَثَلٌ يُضرب للشّيء لا يُنال إلاّ بمشقّة عظيمة.

(٣) (ش): سلَّ الشَّيءَ من الشَّيءِ: انتزعَه وأخرجَه برفق.

(٤) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ١٣١.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لبيان أن ذلك واقع لا محالة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر[١] وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كريتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطًا أي تتقلبون عليها كالبساط[٢] ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة في أسفاركم، وتنقُّلكم في أرجائها؟ ولما أصروا على العصيان، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي إنهم بالغوا في تكذيبي وعصيان أمري ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي واتَّبعوا أغنياءهم ورؤساءهم، الذين أَبْطَرَتْهم الأموال والأولاد[٣]، فهلكوا وخسروا سعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسار ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي ومكر بهم الرؤساء مكرًا عظيمًا مُتَنَاهيًا في الكِبَر[٤] قال الألوسي: ﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر، أي: كبيرًا في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين، وصدهم الناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام[٥] ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام، وتعبدوا رب نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي ولا تتركوا على وجه الخصوص هذه الأصنام الخمسة ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا قال الصاوي: وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها[٦]، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمهم عندهم، ولذا خصوها بالذكر[٧]، وهذا من شدة كفرهم، وفرط تعنتهم في المكر والاحتيال، فقد كانوا يلبسون ثوب المتنصح المخلص، ويسلكون في تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي وقد

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥١.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٧٦، وانظر ما كتبناه حول كروية الأرض في سورة لقمان من هذا التفسير.

(٣) (ش): أبطَرَهُ المالُ ونحوُه: جعله متكبِّرًا طاغيًا، جعله يُغالِي في زهْوه واستخفافِه ويتغطرس.

(٤) (ش): تَنَاهَى، تناهيًا، فهو مُتَنَاهٍ: بلغ نهايتَه. يُقَال: «مُتَنَاهٍ في الدِّقَّة/ مُتَنَاهٍ في الصِّغر».

(٥) «روح المعاني» ٢٩/ ٧٦.

(٦) (ش): هذه العبارة تخالف ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هذه أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٥١.

أضل كبراؤهم خلقًا وناسًا كثيرين، بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال، ثم دعا عليهم بالضلال فقال ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي ولا تزدهم يا رب على طغيانهم وعدوانهم، إلا ضلالًا فوق ضلالهم قال المفسرون: دعا عليهم لما يئس من إيمانهم بإخبار الله له بقوله ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم، ولهذا قال تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ أي من أجل ذنوبهم وإجرامهم، وإصرارهم على الكفر والطغيان، أُغرِقوا بالطوفان وأُدخِلوا النيران، قال في التسهيل: وهذا من كلام الله تعالى إخبارًا عن أمرهم، و ﴿مَا﴾ في ﴿مِّمَّا﴾ زائدة للتأكيد[1]، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضًا، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي[2] ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يجدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله قال أبو السعود: وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكم بهم[3] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك أحدًا على وجه الأرض من الكافرين قال في التسهيل: و ﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما في الدار دَيَّار أي ما فيها أحد[4] ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا، أضلوا عبادك عن طريق الهدى ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ قلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول: يا بني احذر فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، فلذلك قال ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.. ولما دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين فقال ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بدأ بنفسه ثم بأبويه، ثم عمَّم لجميع المؤمنين والمؤمنات، ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي ولا تزد يا رب من جحد بآياتك وكذب رسلك، إلا هلاكًا وخسارًا في الدنيا والآخرة.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿أَعْلَنتُ.. وَأَسْرَرْتُ﴾ وبين ﴿جِهَارًا.. وإِسْرَارًا﴾ وبين ﴿لَيْلًا.. وَنَهَارًا﴾ وبين ﴿يُعِيدُكُمْ.. وَيُخْرِجُكُمْ﴾.

٢ - المجاز المرسل ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المراد رءوس الأصابع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

---

(١) (ش): مِمَّا: من ما.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥١.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٩.

(٤) «التسهيل» ٤/ ١٥١. (ش): الديَّار: ساكِن المنزل.

٣ - الاستعارة التبعية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم في أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التعبية.

٤ - ذكر المصدر للتأكيد مثل ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ و﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب.

٥ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا﴾ الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب، وهو من المحسنات البديعية.

٦ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿مِّدۡرَارٗا، أَنۡهَٰرٗا، وَقَارٗا، أَطۡوَارًا﴾ إلخ.

فَائِدَة: استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ قالوا: المراد بها نار القبر وعذابه، لأنه تعالى عطف بالفاء، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد، فدل على أن المراد عذاب القبر، وهو استدلال لطيف.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ الجِنِّ

٧٢ ٢٨

مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن، وما يتعلق بهم من أمور خاصة، بدءًا من استماعهم للقرآن، إلى دخولهم في الإيمان، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم، كاستراقهم للسمع، ورميهم بالشهب المحرقة، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان، حتى آمنوا به فور استماعه[1] ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا، وإفرادهم له بالعبادة، وتسفيههم لمن جعل لله ولدًا ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ، وتعجبهم من هذا الحديث الغريب ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين، وكافرين ومآل كل من الفريقين ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله، ويفرده جل وعلا بإخلاص العمل، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب، وإحاطته بعلم جميع ما

---

(١) (ش): آمنوا به فَوْرَ استماعِه: آمنوا به بعد استماعِه مُباشرةً.

في الكائنات ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا...﴾ الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدًا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا

اللغة: ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ الحق والصواب ﴿جَدُّ﴾ الجَد لغةً: العظمة والجلال والسلطان يقال: جَدَّ فلانٌ في عيني، أي: عَظُم وجَلَّ، والجَد: الحظُّ، وأبو الأب ﴿حَرَسًا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال: حرس وحُراس، والحارس: الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة جمع قِدَّة قال الشاعر:

إِذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قِدَدُ[1]

﴿غَدَقًا﴾ كثيرًا واسعًا ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق، يقال قسط الرجل إذا جار ﴿صَعَدًا﴾ شاقًا يعلو الإنسان ويغلبه فلا يطيقه يقال: فلان في صعد من أمره أي في مشقة

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٤. (ش): أي فِرَقٌ شتى من الناس تختلف آراؤهم وأهواؤهم.

﴿يَسْلُكْهُ﴾ يُدْخِلْه ﴿لِبَدًا﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال: تلبد الشيء أي تراكم بعضه فوق بعض ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ وحرزًا يتحصن به الإنسان.

التفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إن ربي أوحى إلى جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن، فآمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، مؤثرًا في حُسْن نَظْمه، وبلاغة أسلوبه، وما حَواه من بديع الحِكَم والعظات و ﴿عَجَبًا﴾ مصدر وُصِف به للمبالغة قال المفسرون: استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم، وإنما أخبر به الرسول بواسطة الوحي[1] بدليل قوله ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] والغرض من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطئوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا

---

(١) هذا قول ابن عباس ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس: « مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ» الحديث، ورُوِيَ عن ابن مسعود خلافُه. **(ش):** عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ ». قَالُوا: «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَدَثَ». فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهْوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهْوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ». فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).
وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِى الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: « أَتَانِى دَاعِى الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ». قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِى أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). الأودية: جمع الوادي وهو منفَرَج بين جبال أو تِلال يكون منفذًا للسيل. والشعاب: جمع الشِعب وهو فجوة أو انفراج بين جبلين، طريق أو ممرّ جبليّ. اسْتُطِيرَ: طَارَتْ بِهِ الْجِنُّ. اغْتِيلَ: قُتِلَ سِرًّا، وَالْغِيلَةُ هِيَ الْقَتْلُ فِي خُفْيَةٍ. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٩١): «قَالَ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ: «وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، إِنَّمَا هُوَ فِي أَوَّلِ مَا سَمِعَتِ الْجِنُّ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلِمَتْ حَالَهُ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَقْرَأْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَرَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم يعلمون أنه كلام مُعجِز، وأن محمدًا أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وشتَّان ما بين موقف الإنس والجن! ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدَّقْنا به ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، ولن نجعل لله شريكًا بعد اليوم من خلقه قال الخازن: وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين[1] ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمة ربنا وجلاله ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي ليس له زوجة ولا ولد، لأن الزوجة تُتَّخَذُ للحاجة، والولدَ للاستئناس، والله تعالى مُنَزَّه عن النقائص ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي وأن الأحمق الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقدسيته ويقول قولًا شططًا بعيدًا عن الحق وحَدِّ الاعتدال قال مجاهد: السفيه هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله[2] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظن أن أحدًا لن يكْذب على الله تعالى لا من الإنس ولا من الجن في نِسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكْذبون على الله في ذلك[3] قال الطبري: وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمَتْ أن أحدًا يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا في ذلك فسموه سفيهًا[4] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي كان خلائق من الإنس يستجيرون برجال من الجن ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثمًا وطغيانًا، وعتوًا وضلالًا قال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدْنا الإنس والجن، فزاد الرجال الجن تكبرًا وعتوًا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[5] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعث أحدًا بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم[6] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٥٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٩.

(٣) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٦٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٠.

(٦) هذا هو ظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى: وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتدوا، فهَلَّا اهتديتم؟

شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي كنا قبل بعثة محمد نطرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقيها إلى الكهان ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهابًا ينتظره بالمرصاد يحرقه ويُهلِكه ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن يُنْزِلَه بأهل الأرض؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي أم لخير يريده الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولًا مرشدًا يرشدهم إلى الحق؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قال ابن كثير: وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فرأوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفِظَتْ من أجله السماء، فدنوا منه حرصًا على سماع القرآن ثم أسلموا[1] ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منا قوم صالحون أبرار، عاملون بما يرضي الله، ومنا قوم ليسوا صلحاء قال في التسهيل: وأرادوا بقولهم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ليس صلاحهم كاملًا، أو الذين ليس لهم صلاح[2] ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا فرقًا شتى، ومذاهب مختلفة، فمنا الصالح ومنا الطالح، وفينا التقي والشقي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي علِمْنا وأَيْقَنَّا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه أينما كنا، لن نعجزه بهرب، ولن نتفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءًا قال القرطبي: أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه لن نفُوته بهرب ولا غيره[3] ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ أي لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن أنزله، وصدقنا محمدًا ﷺ في رسالته ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصانًا من حسناته ولا ظلمًا بزيادة سيئاته قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته، لأن البخس النقصان، والرهق العدوان[4] ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق وكفر قال المفسرون: يقال: قسط الرجل إذا جَارَ، وأقسط إذ عَدَلَ، اسم الفاعل من الأول قاسط، ومن الثاني مُقْسِط ومنه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٧. (ش): راجع حديث ابن عباس في التعليق السابق.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٣.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٥.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٦.

وأما القاسط فهو الظالم الجائر ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ أي فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول عليه السلام، فأولئك الذين قصدوا الرشد، واهتدَوْا إلى طريق السعادة والنجاة ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فسيكونون وقودًا لجهنم، توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.. وإلى هنا انتهى كلام الجن[1]، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم، ثم قال تعالى مخبرًا عن أهل مكة ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي لو آمن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي لبسطنا لهم في الرزق، ووسعنا عليهم في الدنيا، زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم الدائم، وبذلك يحوزون عز الدنيا والآخرة قال في التسهيل: الماء الغدق: الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي الإسلام وطاعة الله والمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦][2] ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم به أيشركون أم يكفرون؟ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، يدخله ربه عذابًا شديدًا شاقًا لا راحة فيه قال قتادة: ﴿صَعَدًا﴾ عذابًا لا راحة فيه[3] وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم[4] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا من جملة الموحى به للرسول ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ والمعنى وأوحي إلي أن المساجد وبيوت العبادة هي مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غيره وأَخلِصوا له العبادة فيها قال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله فيها، فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها[5] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كاد الجن يركب بعضهم بعضًا من شدة الازدحام، حرصًا على سماع القرآن قال ابن عباس: كادوا ينقضون عليه لاستماع القرآن[6]، وإنما وصفه تعالى بالعبودية، ولم يذكره باسمه زيادة في تشريفه وتكريمه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن ترجع عن دينك: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك مع الله غيره بشرًا ولا صنمًا قال الصاوي: سبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئتَ بأمر عظيم، وقد عادَيْتَ الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نُجيرك وننصرك فنزلت[7] ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي قل يا محمد في

---

(١) هذا هو قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٤.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٢.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٣.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٥٧. (ش): ضعيف، رواه البغوي في «تفسيره».

محاجَّة هؤلاء: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًا، ولا أجلب لكم نفعًا، وإنما الذي يملك هذا هو الله رب العالمين ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي قل لهم أيضًا: إنه لن ينقذني من عذاب الله أحدٌ إن عصَيْتُه، ولن أجد لي نصيرًا ولا ملجأً منه، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم؟ قال قتادة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً ونصيرًا[1] ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي لا أجد ملجأً إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله فحينئذ يجيرني ربي من العذاب كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] قال ابن كثير: أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عَلَيَّ[2] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ومن كذب الله ورسوله، ولم يؤمن بلقاء الله، وأعرض عن سماع الآيات وتدبر الرسالات، فإن جزاءه جهنم لا يخرج منها أبدًا -وإنما جمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حملًا على معنى ﴿وَمَن﴾ لأن لفظها مفرد ومعناها جمع- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا رأى المشركون ما يوعدون من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي فسيعلمون حينئذٍ من هم أضعف ناصرًا ومعينًا، وأقل نفرًا وجندًا؟ هل هم؟ أم المؤمنون الموحدون؟ ولا شك أن الله ناصر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصرًا والأكثر عددًا، لأن اللهَ معهم وملائكتَه الأبرار ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد: ما أدري هل هذا العذاب الذي وُعِدتُم به قريبٌ زمنُه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود؟ قال المفسرون: كان ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة، أظهروا الاستخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟ ومتى تقوم هذه الساعة؟ فأمره تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب أم بعيد؟ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي هو جل وعلا عالمٌ بما غاب عن الأبصار، وخفِيَ عن الأنظار، فلا يُطْلِع على غيبه أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته ونبوته، فيُظْهِره الله على ما يشاء من الغيب قال المفسرون: لا يُطْلِع الله على غيبه أحدًا إلا بعض الرسل، فإنه يُطْلِعُهم على بعض الغيب، ليكون معجزةً لهم، فإن الرسل مؤيَّدُون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض المغيَّبات، كما قال عن عيسى ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي فإنه تعالى يرسل من أمام الرسول ومن خلفه، ملائكة وحرسًا يحفظونه من الجن، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إليه من علم الغيب قال الطبري: أي فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرسًا وحفظةً يحفظونه من الجن[3] ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليعلم الله علم

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٦.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٠.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٧.

ظهور[١] فإنه تعالى عالم بما كان وما يكون أن رسله الكرام قد بلَّغُوا عنه وَحْيَه كما أوحاه إليهم محفوظًا من الزيادة والنقصان قال ابن كثير: المعنى أن الله يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة[٢] ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط عِلْمُه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي علم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء، المُنبَثَّة في الأرضين والسموات من القَطْر[٣]، والرمْل، وورق الشجر، وزبد البحار، فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفَى عليه أمر، فكيف لا يحيط علمًا بما عند رسله من رسالاته ووحيه، التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه؟ وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات، أو يزيدوا أو ينقصوا أو يحرفوا فيها أو يغيروا، وهو تعالى محيط بها، مُحْصٍ لجميع الأشياء جليلها وحقيرها؟

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الوصف بالمصدر للمبالغة ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي عجيبًا في حسن إيجازه، وروعة إعجازه.

٢ - طباق السلب ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لأن الإيمان نفي للشرك.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظتين من الاشتقاق اللطيف.

٤ - الأسلوب الرفيع بنسبة الخير إلى الله، دون الشر أدبًا مع الخالق ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ وبين لفظ «الشر» و «الرشد» طباقٌ في المعنى.

٥ - الطباق بين ﴿ٱلْإِنسِ.. وَٱلْجِنُّ﴾ وبين ﴿ضَرًّا.. رَشَدًا﴾ وبين ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ استعارة الطرائق للمذاهب المختلفة، وهو من لطيف الاستعارة.

٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿أَحَدًا، وَلَدًا، رَصَدًا، رَشَدًا، صَعَدًا، عَدَدًا﴾ إلخ وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) قال المفسرون: ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله كقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ فإنما هو علمُ ظهور لا علم بَدَاء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلًا وإنما يُظهِر علمه لعباده.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦١.

(٣) (ش): المُنبَثَّة: المنتشرة. القَطْر: المطر.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ ٧٣ ٢٠

مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* سورة المزمل مكية، وهي تتناول جانبًا من حياة الرسول الأعظم ﷺ في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله عز وجل، ومحور السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا سميت «سورة المزمل».

* ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداء شفيفًا لطيفًا، ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾.

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾.

* وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجرًا جميلًا، إلى أن ينتقم الله منهم ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا
سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ
ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢
وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ
رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ
تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

اللغة: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفِّف بثيابه يقال: تزمَّل بثوبه، أي: التفَّ به وتغطَّى، وزمَّلَ غيرَه إذا غطَّاه قال امرؤ القيس:

كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ[1]

﴿سَبْحًا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك، وأصل السَّبْح العومُ على وجه الماء، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نِكْل وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كَثِيبًا﴾ الكثيب: الرمل المجتمع ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلًا متناثرًا منهارًا قال أهل اللغة: المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلَّ مِن تحتِها، وإذا أخذ أسفله انهال، وأصله مهيول كمكيل أصله مكيول ﴿وَبِيلًا﴾ شديدًا وخيم العاقبة.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها المتلفف بثيابه، وأصله المتزمل وهو الذي تلفف وتغطى، وخطابه ﷺ بهذا الوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفة له عليه السلام قال السهيلي؛ إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطَب وترْك معاتبته سَمُّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضبَ فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ»، إشعارًا بأنه ملاطفٌ له، وغير عاتب عليه[2]، والفائدة الثانية، التنبيهُ لكل متزمل راقد ليله، ليتنبَّه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأنه الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطَب، وكل من اتصف بتلك الصفة[3]، وسبب هذا التزمل ما روي في الصحيح «أن رسول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، وأخبرها بما جرى[4]، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾» أي يا أيها الذي تلفَّفَ بقطيفَته، واضطجع في زاويةِ بيته، وقد أشبَه من يُؤْثِر

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٨. (ش): البِجَاد: الكساء المخطط.

(٢) (ش): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ت قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ». قَالَتْ: «كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ». فَجَاءَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ»، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». (رواه البخاري ومسلم).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٣.

(٤) راجع صحيح البخاري «باب أول نزول الوحي». (ش): رواه البخاري ومسلم.

الراحة والسكون، ويحاول التخلص مما كُلِّف به من مهمات الأمور[١] ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي دع التزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لتستعد للأمر الجليل، والمهمة الشاقة، ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس، وتبصيرهم بالدين الجديد.. ثم وضَّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل، أو أقل من النصف قليلًا، أو أكثر من النصف، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخِه سَنَةٌ[٢]، وهذه هي السورة التي نسخ آخرُها أوَّلَها، حيث رحِم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ الآية ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتُؤَدَة وتَمَهُّل، ليكون عونًا لك على فهم القرآن وتدبُّره، قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فسيتنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة[٣]، وقد كان رسول الله ﷺ يقطِّع القراءة حرفًا حرفًا أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة

---

(١) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٧١، وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزًا لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية «الجسمية والروحية» على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب، وتَجَشُّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعْرِض لهم، وقد كان من أثر هذه «التربية الروحية» أنْ مَلَك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله. عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ أنه سأل قَالَ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ». قَالَ: «حَدِّثِينِي عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ». قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟». قَالَ: «بَلَى». قَالَتْ: «فَإِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ حُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَىْ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: «لما نزلت أول المزمل؛ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

(ش): تَجَشُّم الأهوال والأخطار: تحَمُّلُها عن كُرهٍ ومشقَّة.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٦٥.

لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذابٍ إلا وقف وتعوَّذ[١] ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن وتفهمه، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة، ذات التكليف الصعب الشاق فقال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلامًا عظيمًا جليلًا، له هيبة وروعةٌ وجلال، لأنه كلام الملِك العلاَّم قال الإمام الفخر: والمراد من كونه ثقيلًا هو عِظَم قَدْره، وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقيل، وهذا معنى قول ابن عباس: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، وقيل: المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمَرْتُك بصلاة الليل، لأنا سنُلقي عليك قولًا عظيمًا، ولا بد أن تصيّر نفسك مستعدَّة لذلك القول العظيم، وذلك بصلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيها[٢] أقول: وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل، وتلاوة القرآن، فإن الله تعالى كلَّف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد، فيه تكاليف شاقة على النفس، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه، ولا شك أن مثل هذا التكليف، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات، فأنت يا محمد مُعَرَّضٌ لمتاعب كثيرة، وأخطار جَمَّة في سبيل هذه الدعوة، وحَمْل الناس على قبولها، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وأنت على ما أنت عليه من التزمُّل والتلَفُّف، والخلود إلى الراحة والسكون[٣]، والبعد عن المشاقِّ، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر؟ فانشط من مضجعك إذًا، واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعدادًا لتحمل مشاق الدعوة، والتبشير بهذا الدين الجديد، ويا لها من لفتةٍ كريمة، تيَقَّظَ لها قلبُ النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، فشمَّر عن ساعد الجد والعمل، وقام بين يدي ربه حتى تشققت قدماه ثم بيَّن تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التفرغ والصفاء، وما يُنشِئه المرء ويُحْدِثه من طاعةٍ وعبادة، يقوم لها من مضجعه بعد هدأةٍ من الليل[٤] ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي هي أشد على المصلي

---

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن ٣/ ٥٦٢. (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». وَفِي سُجُودِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ وَقَفَ وَسَأَلَ وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ عَذَابٍ إِلاَّ وَقَفَ وَتَعَوَّذَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩.

(٣) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٤) (ش): هدأةٍ من الليل: جزء من اللَّيل.

وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل جعل للنوم والراحة، فقيامه على النفس أشد وأثقل، ومن شأن هذه الممارسة الصعبة أن تقوّي النفوس، وتشد العزائم، وتصلب الأبدان، ولا ريب أن مصاولة الجاحدين أعداء الله تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أَثْبَتُ وأَبْيَنُ قولًا، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، فتكون النفس أصفى، والذهن أجمع، فإن هدوَّ الصوت في الليل، وسكون البشر فيه، أعون للنفس على التدبر والتفطن، والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا، واشتغالًا طويلًا في شئونك، فاجعل ناشئة الليل لتهجدك وعبادتك قال في التسهيل: السبحُ هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغل والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك[1].. وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هي بمثابة تمهيدٍ وبساطٍ للدعوة، انتقل إلى أمر الرسول ﷺ بتبليغ الدعوة، وتعليمه كيفية السير فيها عملًا، بعد أن مهدها له نظرًا فقال ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي استعن على دعوتك بذكر الله ليلًا ونهارًا، وانقطع إليه انقطاعًا تامًا في عبادتك وتوكلك عليه، ولا تعتمد في شأنٍ من شئونك على غيره تعالى قال ابن كثير: أي أكْثِر من ذِكْره وانقطِع إليه جلّ وعلا، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرغتَ من أشغالك مع إخلاص العبادة له[2] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو جل وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق، وهو المالك لمشارق الأرض ومغاربها، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، فاعتمِدْ عليه وفوِّض أمورَك إليه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم: «ساحر، شاعر، مجنون» فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شتيمة، قال المفسرون: الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه[3]، ولا يشوبه أذى ولا شتم، وقد كان هذا قبل أن يؤمر بالقتال كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] ثم أُمر ﷺ بقتالهم وقتلهم، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأُمِرُوا بالصبر وبالمجاهدة الليلية، حتى يُعِدُّوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثر عددهم فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا صناديد قريش ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب الغِنَى، والتنعُّم في الدنيا، والترف والبطر فأنا أكفيك شرهم قال الصاوي: المعنى اتركني أنتقم منهم،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٧.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٤.
(٣) كذا قال ابن كثير ٣/ ٥٦٤.

ولا تشفع لهم[١]، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ، وإجلال قدره[٢] ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي وأمْهِلهمْ زمنًا يسيرًا حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فلما خرج منها سلَّط عليهم السنين المجدبة وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر وهو العذاب الخاص[٣].. ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي إنَّ لهم عندنا في الآخرة قيودًا عظيمة ثقيلة يقيدون بها، ونارًا مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل: الأنكال جمع نِكْل وهو القيد من الحديد، وروي أنها قيود سُودٌ من نار[٤] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي وطعامًا كريهًا غير سائغ، يغصُّ به الإنسان[٥] وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل[٦] ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وعذابًا وجيعًا مؤلمًا، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال.. ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازًا عنيفًا شديدًا هي وسائر الجبال، وذلك يوم القيامة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تَلًّا من الرمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير: أي تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت جحارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب[٧] كقوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] أي لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.. ذكر تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين، ومكانه وهو الجحيم، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم، ووقته وهو عند اضطراب الأرض وتزلزلها بمن عليها، وأراد بذلك تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله، إن بَقُوا مُستمرّين في تكذيبهم لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلَّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمدًا ﷺ شاهدًا على أعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ

---

(١) (ش): تعبير الصاوي غير سليم؛ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا مِن بعدِ إذنه، فكيف يليق بالرسول ﷺ أن يشفع قبل الإذن حتى يُنهَى عن ذلك. وأيضًا النبي ﷺ لا يشفع للمشركين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٦٠.

(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٢٦٠.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥٨. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن حماد بن أبي سليمان أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ قال: «قيودا سوداء من نار جهنم». وحماد بن أبي سليمان من صغار التابعين.

(٥) (ش): غصَّ بالطَّعام أو الماءِ ونحوِهما: اعترض في حلقه فمنعه التَّنفّس والبلع.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦٤.

(٧) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٥.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي كما بعثنا إلى ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولًا من أولئك الرسل العظام «أولي العزم» وهو موسى بن عمران قال الخازن: وإنما خصَّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل، لأن محمدًا ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه وُلد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه ربَّاه[1] ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره كما عصيتم يا معشر قريش محمدًا ﷺ وكذبتم برسالته ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي فأهلكناه إهلاكًا شديدًا فظيعًا، خارجًا عن حدود التصور، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه قال أبو السعود: وفي الآية التنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة، و «الوبيلُ» الثقيل الغليظ من قولهم كَلَأٌ وبيلٌ أي وخيم لا يُستَمْرَأُ لثِقَله[2] وبعد أن ذكر الله أخْذَه لفرعون، وأن مُلكه وجبروته لم يدفعا عنه العذاب، عاد فذكَّر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبيّن لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟ قال الطبري: وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه، وذلك حين يقول الله لآدم: أخرج من ذريتك بعث النار، من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فيشيب هنالك كل وليد[3] ثم زاد في وصفه وهوْله فقال ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي السماء متشققة ومتصدّعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعًا لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذه الآيات المخوّفة، التي فيها القوارع والزواجر، عظةٌ وعبرةٌ للناس ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي فمن شاء من الغافلين الناسين، أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فليسلك طريقًا موصلًا إلى الرحمن، بالإيمان والطاعة، فالأسبابُ ميسرة، والسُبُل مُعَبَّدة[4]، قال المفسرون: والغرض

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٦٩.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٥. (ش): وخُم الطَّعامُ: ثَقُل وكان فاسدًا. استمرأ الطَّعامَ وغيرَه: وجده مقبولاً مُستساغًا، استطَابَه.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٦، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٥. (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ. فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثُمَّ قَالَ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «مَا أَنْتُمْ فِى النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ». رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): عبَّد الطَّريقَ ونحوَه: ذلَّلَه ومهَّده.

الحـضُّ على الإيمان وطاعـة الله عَزَّ وَجَـلَّ، والترغيب في الأعمال الصالحـة، لتبقى ذخرًا في الآخـرة.. ثـم عادت الآيـات الكريمة للحديث عمَّا بدأته في أول السـورة من قيـام الليل فقال تعالـى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن ربـك يـا محمـد يعلـم أنك تقوم مـع أصحابك[1] للتهجد والعبـادة أقل من ثلثي الليـل، وتارة تقومون نصفـه، وتـارةً ثلثـه كقولـه تعالـى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨] ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي والله جلّ وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وأجزائهما وسـاعاتهما، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه السـاعات في غلس الظلام ابتغاء رضوانـه، وهو تعالـى المدبّر لأمر الليل والنهـار ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري: أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم[2] ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلـوا ما تيسـر لكم من صلاة الليـل، وإنما عبَّر عن الصلاة بالقـراءة، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس: سـقط عن أصحاب رسـول الله قيام الليل وصارت تطوعًا، وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ[3] ثم بين تعالى الحكمة في هذا التخفيف فقال ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم مَن يُعجِزه المرضُ عن قيام الليل، فخفف عنكم رحمة بكـم ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي وقـوم آخـرون يسـافرون في البـلاد للتجـارة، يطلبون الرزق وكسـب المال الحـلال ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وكل من هذه الفرق الثلاثة يشـقُّ عليهـم قيام الليل، فلذلك خفف الله عنهم، ذكر تعالـى في هذه الآية الأعذار التي

(١) الآية نص صريح على أن قيام الليل كان واجبًا على الرسول وعلى يأصحابه، وقد كُلِفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلة، لا تقل على ثلثه، ولا تزيد على ثلثيه، فإن قيام الليل وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة من ذكر، وصلاة، وتلاوة قرآن، يُقَوِّي أبدانهم، ويزكِّي أرواحهم، ويعَوِّدهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المُترَفون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات، كلفهم الله تعالى بذلك ليُعِدَّهم إعدادًا روحيًّا وجسميًا للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمُّل المَشاقّ في سبيل نشر هذا الدين، ويالها من تربية كريمة مجيدة، تُنشِئ الرجال والأبطال.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٨.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٨٧. (ش): لم أجده بهذا اللفظ إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني بالنافلة أنها للنبيّ ﷺ خاصة، أُمر بقيام الليل وكُتب عليه. (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). وقد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، هَل كَانَ فَرْضًا عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَرْضًا، مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى عَدَمِ فَرْضِيَّتِهِ عَلَى الأُمَّةِ. [انظر: الموسوعة الفقهية (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، (٣٤/ ١١٨)]. أما حديث: «ثَلاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرَائِضُ، وَهُنَّ لَكُمْ تَطَوُّعٌ: الْوَتْرُ، وَالنَّحْرُ، وَصَلاةُ الضُّحَى» فقد رواه أحمد وضعفه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه الحاكم بلفظ: «ثَلاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرَائِضُ وَلَكُمْ تَطَوُّعٌ: النَّحْرُ، وَالْوِتْرُ، وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ»، وضعفه الذهبي والألباني.

تكـون للعباد تمنعهـم من قيام الليل، فمنها المرض، ومنها السـفر للتجـارة، ومنها الجهاد في سبيل الله، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيدًا للتخفيف عنهم قال الإمام الفخر: أما المرضَـى فإنهم لا يمكنهم الاشـتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسـافرون والمجاهدون فهم مشـغولون في النهار بالأعمال الشـاقة، فلو لم يناموا في الليل لتواليت أسـباب المشقة عليهم، فلذلـك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسـوخًا في حقهم[1] ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ أي فصلوا ما تيسَّـر لكم من صلاة الليل، واقرءوا في صلاتكم ما تيسـر من القرآن ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأدوا الصـلاة المفروضـة على الوجه الأكمل، والـزكاة الواجبة عليكم إلى مسـتحقيها قال المفسـرون: قلَّما يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة، فـإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربه، والزكاة عماد الدين بينه وبين إخوانه، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه الـبر والإحسـان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس: يريد سـائر الصدقات سـوى الـزكاة، من صلة الرحم، وقِرَى الضيف وغيرهما[2] ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أيَّ شيء تفعلوه أيهـا الناس من وجوه البر والخيـر تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ أي تجدوا ذلـك الأجـر والثواب يوم القيامة خيرًا لكم مما قدمتـم في الدنيا من صلح الأعمال، فإن الدنيا فانيـة والآخـرة باقية، وما عند الله خيـرٌ للأبرار ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اطلبـوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسـان قَلَّما يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ أي عظيم المغفرة، واسـع الرحمة ختم تعالى السـورة بإرشاد المنفقين المحسـنين، إلى أن يطلبوا من الله الصفح والعفو، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق، أو لم يحسـنوا العمل في الإقراض، فيضعوا النفقة في غير مواضعها، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان!!

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ.. أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ وبين ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ.. وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وبين ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾.

٣ - تأكيـد الفعـل بالمصـدر مثـل ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ زيادة في البيان والإيضاح.

٤ - الالتفـات مـن الغيبـة إلى الخطـاب ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ ولو جـرى على الأصل لقال: إنا أرسلنا إليهم، والغرض من الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٨٧.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٧١. (ش): قرَى الضيفَ: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

٥ - المجاز المرسل ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ أراد به الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة.

٦ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ عمَّم بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق ليعم جميع الصالحات.

٧ - الاستعارة التبعية ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ شبَّه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين، وهو من لطيف الاستعارة.

٨ - السجع المُرَصَّع مثل ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ الخ.

«انتهى تفسير سورة المزمل»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ المُدَّثِّرِ ٧٤ ٥٦

مكية وآياتها ست وخمسون

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية، شأنها كسابقتها -سورة المزمل- تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ، ولهذا سميت سورة المدثر.

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

* ثم توالت السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين بيوم، عصيب شديد لا راحة لهم فيه، لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر «الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1].

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الآيات.

---

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لِمَ؟». قَالَ: «لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعَرِّضَ لِمَا قِبَلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؛ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾. (رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني).(الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكَره ونقَله عن غيره. (طَلاَوة/ طُلاَوة/ طِلاَوة): حُسْن، ورَوْنق. (مُغْدِق): كثير المياه.

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه[1]، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ الآيات.

* وختم السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ
خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ
﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾
سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ
النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا
أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ
﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ
﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن
قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ
تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).
وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

اللغَة: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه، تدثر: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، ومنه حديث « الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ »[١]

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور الذي ينفخ فيه، والنقر في كلام العرب الصوت، سمي ناقورًا لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب، يَفزَع الناس منه ويموتون[٢] ﴿عَبَسَ﴾ قَطَّب بين عَينيه[٣] ﴿وَبَسَرَ﴾ كلح وجهه وتغير لونه[٤] قال الليث: عَبَس إذا قَطَّب ما بين عينيه، فإن أبدَى عن أسنانه في عبوسِه قيل: كَلَح، فإن اهتم في الأمر وفكر فيه قيل: بَسَر، فإن غضب مع ذلك قيل: بَسَل[٥] ﴿أَسْفَرَ﴾ أضاء وانكشف ﴿ٱلْكُبَرِ﴾ الدواهي وعظائم المصائب والعقوبات قال الراجز:

يَا ابْنَ الْمُعَلَّى نَزَلَتْ إِحْدَى الْكُبَرِ ... دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَّاءُ الغَبَرْ[٦]

﴿قَسْوَرَةٍ﴾ أسد، من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هم جماعة الرماة الذين يتصيدون، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه قال لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتْفَةً فِي نَدِيِّنَا ... أَتَانَا الرِّجَالُ الصَّائِدُونَ الْقَسَاوِرُ[٧]

سَبَبُ النّزول: روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة -يعني محمدًا ﷺ- يتوعدنا ويخوفنا بجهنم، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم!! فقال «أبو الأشد الجمحي»: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني اثنين، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الآية[٨].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي يا أيها المتغطي بقطيفته يريد النوم والراحة، قم من

---

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ): أي: انهم بمنزلة ذلك الثوب، وإنهم الخاصة والبطانة وألْصَق الناس بي،، والناس هم العامة.

(٢) (ش): الصور: بوقٌ يُنفخ فيه.

(٣) (ش): أي ضَمَّ جِلد مَا بَين عَيْنَيْهِ وَجِلد جَبهته، وصَار كريه الْوَجْه.

(٤) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٠١.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٨٣.

(٧) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦٩. (ش): هتَف الشَّخصُ: صاح مادًّا صوتَه. النَدِيّ: النَادِي: المُنتدَى: مجلس القوم ومتحدَّثُهم، مكان يجلس القوم فيه ويتبادلون الحديث.

(٨) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠٣، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٧٧. (ش): دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَّاءُ الغَبَرْ: أي بَلِيَّةٌ لاَ تَكَادُ تَذْهَبُ، إِن ذُكِرتْ يَقُولُونَ لَا تَسْمَعُوهَا فإنها عَظِيمَةٌ. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي؛ قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

مضجعك قيام عزم وتصميم، وحذر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، خوطب ﷺ بهذا اللفظ «المدثر» مؤانسة له ﷺ وتلطفًا، كما خوطب بلفظ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ في السورة السابقة قال المفسرون: كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ..﴾ [العلق: ١] الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة: زملوني، زملوني فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ » [المزمل: ١٢] الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينا هو يمشي سمع صوتًا من السماء، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فعَرَاهُ ﷺ من رؤيته الرعب والفزع[1]، فجاء إلى أهله فقال: دثروني، دثروني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2] قال القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بوصفه ولم يقل «يا محمد» ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «قم يا نومان»[3]

---

(١) (ش): عَرَاهُ: أصابه، غَشِيَه، أَلَمَّ به.

(٢) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله كذا في الطبري ٢٩/ ٩٠. (ش): عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ وَهِيَ الأَوْثَانُ قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجُئِثْتُ: ففزعتُ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٦٠. (ش): عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ». فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ. قَالَ: « اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ ». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ « وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ ». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). قَوْلُهُ (كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ مَا قَالَ) مَعْنَاهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ فَهِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ لَبَالَغَ فِي نُصْرَتِهِ وَلَزَادَ عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ فِي لَيْلَةِ الأَحْزَابِ وَقَصَدَ زَجْرَهُ عَنْ ظَنِّهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ. (قُرِّرْتُ): بَرْدٌ. (قُرِرْتُ): أَيْ بَرَدْتُ. (وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) لَا تُفَزِّعْهُمْ عَلَيَّ وَلَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيَّ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تُنَفِّرْهُمْ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الأَوَّلِ وَالْمُرَادُ لَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوكَ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيَّ لِأَنَّكَ رَسُولِي وَصَاحِبِي. (كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ) يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَجِدِ الْبَرْدَ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَلَا مِنْ تِلْكَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ شَيْئًا بَلْ عَافَاهُ اللهُ مِنْهُ بِبَرَكَةِ إِجَابَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَذَهَابِهِ فِيمَا وَجَّهَهُ لَهُ وَدُعَائِهِ ﷺ لَهُ وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ اللُّطْفُ بِهِ وَمُعَافَاتُهُ مِنَ الْبَرْدِ حَتَّى عَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَجَعَ وَوَصَلَ =

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظِّمْ ربك، وخُصَّه بالتمجيد والتقديس، وأَفْرِدْه بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله قال الألوسي: أي اخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة، اعتقادًا وقولًا[١]، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار، تنبيهًا للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق، ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي وثيابك فطهرها من النجاسات والمستقذَرات، فإن المؤمن طيبٌ طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث، قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه[٢] وقال ابن عباس: كنَّى بالثياب عن القلب. والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ[٣]

يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب، يريدون وصفه بالنقاء من المعايب وذميم الصفات، ويقولون: فلان دنس الثياب إذا كان موصوفًا بالأخلاق الذميمة قال الرازي: والسبب في حسن هذه الكناية، أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجدُ في ثوبه، والعفة في إزاره[٤] ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها[٥] قال ابن زيد: الرجز: الآلهة التي كانوا يعبدونها، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها وقال الإمام الفخر: الرجز: اسم للقبيح المستقذر كالرجس قال تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجُر الجفاء، والسفَه، وكُلَّ قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين، والمراد بالهجر الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما يقول المسلم: ﴿اهْدِنَا

= عَادَ إِلَيْهِ الْبَرْدُ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَلَفْظَةُ الْحَمَّام عَرَبِيَّةٌ وَهُوَ مُذَكَّرٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَمِيمِ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ. (يَصْلِي ظَهْرَهُ) أَيْ يُدْفِئُهُ وَيُدْنِيهِ مِنْهَا. (كَبِدِ الْقَوْسِ) هُوَ مِقْبَضُهَا وَكَبِدُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ. (أَصْبَحْتُ) أَيْ طَلَعَ الْفَجْرُ. (قُمْ يَا نَوْمَانُ) النَّوْمَانُ: كَثِيرُ النَّوْمِ وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي النِّدَاءِ. [باختصار من شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ١٤٥-١٤٦).

(١) روح المعاني ٢٩/ ١١٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩١، واختار ابن جرير القول الأول وقال: هو أظهر. (ش): بِحَمْدِ اللهِ: والحَمْدُ للهِ. لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ: لم ألبس ثَوْبَ فَاجِرٍ، أي لم أفعل فِعْل الفُجَّار. أَتَقَنَّعُ: أستُر وجهي. غدَر فلانًا/ غدَر بفلان: خانه، نقَض عهدَه وترَك الوفاء به. وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ: أي لم أغدر بأحد فأستتر من الناس من عار ذلك الفعل.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٢.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩٣.

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ليس معناه أنه ليس على الهداية، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية[١] ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ أي ولا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقِلّ ما يعطِي وإن كان كثيرًا[٢]، وأَعْطِ عطاءَ من لا يخاف الفقر وقال ابن عباس: لا تُعطِ عطيَّةً تلتمس بها أفضل منها[٣] بمعنى: لا تُعطِ شيئًا لتُعطَى أكثر منه، وسر النهي أن يكون العطاء خاليًا عن انتظار العوض تعفُّفًا وكمالًا، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب وأجَلّ الأخلاق ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي اصبر على أذى قومك، ابتغاء وجه ربك.. ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور، نفخة البعث والنشور، وعبر عن النفخ وعن الصور، بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النفر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفزعًا، فكأنه يقول: إصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك، ولهذا قال بعده ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد هائل، يشتد فيه الهول ويعسر الأمر عليهم، والإشارة بالبعيد ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة[٤] ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ أي هو عسير على الكافرين، غير هَيِّنٍ ولا يسير عليهم، لأنهم يُناقَشُون الحساب[٥]، وتسْوَدُّ وجوههم، ويُحشرون زرقًا، ويفتضحون على رءوس الأشهاد، قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين، لأنه قيد عسره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين[٦]. ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر «الوليد بن المغيرة» وقوله الشنيع في القرآن فقال ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٨.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٨.

(٥) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ». فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فَقَالَ «لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ». وفي رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ): نُوقِشَ: اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. (عُذِّبَ): أي أَنَّهُ مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ) أي تُعرَض الأعمال على الشخص حتى يُقِرّ؛ فإذا أقَرَّ بها قال الله تعالى له: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (رواه البخاري ومسلم). فمن يشأ الله أن يعفوَ عنه يحاسبه الحسابَ اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقَش الحساب.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٦٥.

أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خلقته في بطن أُمه وحيدًا فريدًا، لا ما ل ولا ولد، ولا حول له ولا مدد، ثم كفر بي وكذب بآياتي قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» كان من أكابر قريش، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدافق، وكان للوليد بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفًا ولا شتاء، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وفيه نزل ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون[1]، ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .. ﴾ إلى ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ [القلم] وهو الذي آذَى رسول الله ﷺ وكاد له، فإن صناديد قريشٍ لما بَرِمُوا برسول الله[2]، وضاقت عليهم الحيل في إسكاته، وإطفاء نور دعوته، لجئوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة، فجعلوا ينادون: إن محمدًا ساحر، فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه، ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه ثم قال تعالى ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ أي جعلت له المال الواسع المبسوط، من الإبل، والخيل، والغنم، والبساتين النضرة قال البيضاوي: ﴿ مَّمْدُودًا ﴾ أي مبسوطًا كثيرًا، وكان له الزرع والضرع والتجارة[3] قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا[4] ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ أي وأولادًا مقيمين معه في بلده، يحضرون معه المحافل والمجامع، يستأنس بهم ولا يتنغَّص عيشه لفراقهم قال المفسرون: كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا، وكان مستأنسًا بهم وله بهم عز ومنعة، أسلم منهم ثلاثة: «خالد، وهشام، والوليد»[5] وبعد أن ذكر من مظاهر النعم

---

(١) انظر ما كتبناه في سورة «ن» حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لِمَ؟». قَالَ: «لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعَرِّضَ لِمَا قِبَلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؛ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: « هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾. (رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكَره ونَقَله عن غيره. (طَلَاوة/ طُلَاوة/ طِلَاوة): حُسْن، ورَوْنق. (مُغْدِق): كثير المياه.

(٢) (ش): بَرِمُوا: مَلُّوا وضَجِروا.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٢/ ٤٩٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين تبعًا للزمخشري أن الذين أسلموا «خالد، وعمارة، وهشام» والصحيح أنه الوليد فأما عمارة فإنه مات كافرًا، وانظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٤.

المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطًا، ويسرت له تكاليف الحياة، ومظاهر الجاه والعز والسيادة، فكان في قريش عزيزًا منيعًا، وسيدًا مطاعًا ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي قال الفخر الرازي: لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني[1]! (أي ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر وجحد، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان، ويقابله بالطاعة والإيمان، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد، ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد؟ ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأكلِّفه وأُلْجِئُه إلى عذاب صعب شاق لا يُطاق، تَضعُف عنه قوتُه كما تضعف قوة من يصعد في الجبل قال القرطبي: ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يُكلَّف صعودها، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها[2] وفي الحديث «الصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ، يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا»[3] ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن، وأجال رأية وذهنه الثاقب، ثم رتب وهيأ كلامًا في نفسه، ماذا يقول في القرآن؟ وبماذا يطعن فيه؟ قال تعالى دعاء عليه: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه، حيث قال عن القرآن، إنه سحر، وقال عن محمد إنه ساحر، وفي الآية استهزاء به وتَهَكُّم، حيث قَدَّر ما لا يصح تقديرُه، ولا يسُوغُ أن يقوله عاقل[4] قال في البحر: يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه: قاتله الله، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يُحسد عليه ويُدعَي عليه من حُسَّاده، والاستفهام في قوله ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾؟ في معنى ما أعجب تقديره وما أغربه به؟ كقولهم أي رجل هذا؟ أي ما أعظمه![5] ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيدًا لذمه وتقبيحًا لحاله، ولغاية التهكم به، كأنه قال: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبدع رأيه الحصيف![6] حيث قال عن القرآن إنه سحر يؤثر؟ قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٧٢.
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. (ش): رواه أحمد والترمذي، وضعفه الألباني.
(٤) (ش): لا يسُوغُ: لا يجوز ولا يُبَاح.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٤.
(٦) هذا كما قال الزمخشري: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أن ما أتى به في غاية الركاكة والسقوط.

الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمِر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه ليعلُو وما يُعلَى عليه، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ فقال: كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك مالًا ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك زيَّنْت كلام محمد وصبأتَ لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالًا وولدًا؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون. فهل رأيتموه، يُخنَق؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن. فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر: فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا اللهم لا، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده، وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر، فذلك قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات[1] تركنا الوليد يفكر ويقدر، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد، قال تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أجَالَ النظر مرة أُخرى متفكرًا في شأن القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي ثم قَطَّب وجهه وكَلَّحُه ضِيقًا بما يقول ﴿وَبَسَرَ﴾ أي وزاد في القبض والكُلُوح، كالمهتم المتفكر في أمر يدبِّره قال في التسهيل: البُسُور تقطيب الوجه وهو أشد من العُبُوس[2] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي ثم أعرض عن الإيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي فقال: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ليس هذا كلام الله، وما هو إلا كلام المخلوقين، يخدع به محمد القلوب، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور قال الألوسي: هذا كالتأكيد للجملة الأولى، لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنا أو من كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفي وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل، ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنه إنما قال ذلك عنادًا وحمية جاهلية، لا جهلًا بحقيقة الحال[3]، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون!! ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله جهنم يتلظَّى حرها، ويذوق عذابها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟ استفهام للتهويل والتفظيع، أي: وما أعلمك أي شيء هي سقر؟ ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحدًا من الفجار إلا أحرقته قال

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٩/ ٧٣ و«الخازن» ٤/ ١٧٦ و«التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠١ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام. (ش): وانظر التعليق في مقدمة السورة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦١.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/ ١٢٤.

ابن عباس: لا تبقي من الدم والعظم واللحم شيئًا، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبدًا[١] ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهو لها كقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عيانًا[٢] فهي بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدِّ أعناق ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس: «ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم»[٣] قال الألوسي: روي عن ابن عباس أنها لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أُمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة -يعني محمدًا- يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم أي العدد الشجعان، أفيعجز كل عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد الجمحي: وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾[٤] أي وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ الشداد، ولم نجعلهم من البشر حتى يصارعوهم ويغالبوهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لم نجعل ذلك العدد إلاَّ سببًا لفتنة وضلال المشركين، حين استقلوا بعددهم واستهزءوا حتى قال أبو جهل: أفيعجز كل مائةٍ منكم أن يبطشوا بواحدٍ منهم ثم تخرجون من النار؟[٥] قال الطبري: وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنةً للكافرين، لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم لأصحابه على سبيل الاستهزاء أنا أكفيكموهم[٦] ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠٢.

(٢) اختار بعض المفسرين أن معنى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي محرقة للجلود مسودة لها، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن: «البشر» جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك، وما اخترناه هو ما رجحه القرطبي ونسبه إلى ابن عباس وكذلك ما رجحه الإمام الفخر ارازي والله أعلم.

(٣) (ش): ذكره القرطبي في «تفسيره» بدون إسناد.
مِقْمع: مِقْمعة:، خشبة أو حديدة معوجَّة الرَّأس يُضرب بها رأسُ الإنسان أو الحيوان لإهانته وإذلاله. والجمع مَقامِعُ. وَقِيلَ: الْمَقَامِعُ: الْمَطَارِقُ.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٢٦. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي؛ قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

(٥) تفيسر القرطبي ١٩/ ٧٩.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٠١.

محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزَّلة ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ أي ويزداد المؤمنون تصديقًا لله ورسوله، بما يشهدان من صدق أخبار نبيهم ﷺ وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقًا للتوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيدٌ لما قبله لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك، فكان قوله ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ مبالغة وتأكيدًا[1]، وهو ما يسميه علماء البلاغة الإطناب ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والكافرون من أهل مكة: أيَّ شيء أراد الله بهذا القول العجيب، الذي هو مثل في الغرابة والبداعة؟ ولماذا يخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر؟ قال الرازي: إثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي حصول الارتياب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقيبه البتة شك ولا ريب، وقد كان ﷺ يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه، ولذلك بيَّن تعالى الغاية من ذكر هذا الخبر أوضح بيان[2] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي مثل ما أضلَّ الله أبا جهل وأصحابه، يضلُّ الله عن الهداية والإيمان من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هدايته[3]، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا الله رب العالمين، وفي الآية ردٌّ على أبي جهل حين قال: أما لربِّ محمد أعوان إلاّ تسعة عشر؟ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم الله تعالى بالقمر على أن سقر حق[4]، ونشر ضياءه على الأرجاء

---

(١) نقل هذا القول صاحب التسهيل عن الزمخشري.

(٢) «التفسير الكبير» بشيء من التصرف ٣٠/ ٢٠٦.

(٣) قال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق وهدايته لفريق أنه تعالى يجبر كلا منهما على الضلالة والهدى، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر، كلا فإن هذا الإكراه مُنافٍ للعدل الإلهي بل مُنافٍ لحكمة التشريع السماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، الدالة على أن العبد له إرادة واختيار، هما مناط التكليف والمؤاخذة وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح سأل رجلٌ عليا رضي الله عنه فقال: أكان مسيرك إلى الشام – يعني لقتال أهلها– بقضاء الله وقدره؟! فقال له: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازمًا، وقدرًا حاتمًا، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد إن الله سبحانه أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا وكلف يسيرًا ولم يكلف عسيرًا، ولم ينزل الكتب للعباد عبثًا، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ اهـ، وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية والإضلال.

(٤) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ =

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي إن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة، والبلايا الخطيرة، فكيف يستهزئون بها ويكذبون؟ قال أبو حيان: أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفًا لها، وتنبيهًا على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهي العظيمة الي تلا نظضير لها[1] وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله، وأنهما في حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما، ونشوء الليل والنهار عنهما، مسخران لأمره تعالى، ساجدان بين يدي قدرته وقهره، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذي خلقهما؟ ثم قال تعالى عن جهنم ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أي هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب الى ربه بفِعْل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات قال في البحر: والمراد بالتقدم والتأخر: السبق الى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] [الكهف: ٢٩] قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته[3] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونةٌ عند الله بكَسْبها، ولا تُفَكّ حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي إلا فريق السعداء المؤمنين، فإنهم فكوا رقابهم وخلَّصوها من السجن والعذاب، بالإيمان وطاعة الرحمن ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هم في جناتٍ وبساتين لا يُدرَك وصفُها، يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين في النار، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم، يقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلاّ فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار[4] ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين قال ابن كثير: مرادهم في الآيتين: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا[5] ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل قال في التسهيل: والخوض هو كثرة الكلام

= تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم). والمعنى لِيرتدعْ أولئك المستهزئون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم، وأُقسم بالقمر ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي وأُقسم بالليل حين ولَّى بظلمته ذاهبًا ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي وبالصبح إذا تبلَّج وأضاء. (ش): تبلَّج الصُّبحُ: أشرق وأضاء.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٨.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٩.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٠٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٠.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٧٣.

بما لا ينبغي من الباطل وشبهه[١] ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء والمعاد، وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيمًا له، لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات، قال تعالى معقبًا على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب الله، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قُبِلَتْ شفاعتهم فيهم قال ابن كثير: من كان متصفًا بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلًا، فأما من وافى الله كافرًا فإنه مخلد في النار أبدًا[٢] ولما ذكر تعالى قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإرشادات؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع قال في البحر: شبههم تعالى بالحُمُر النافرة مذمَّةً لهم وتهجينًا[٣] وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد ثم قال: والقسورة: الأسد[٤] ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي بل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أُنزل على محمد ﷺ، ويريد أن يتنزَّل عليه الوحي كما تنزَّل على الرسل والأنبياء، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول: دع عنك ذكر إعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم، واستمع لما هو أعجب وأغرب، وذلك طمع كل فردٍ منهم أن يكون رسولًا يوحى إليه، وهيهات أن يصل الأشقياء إلى مراتب الأنبياء، ثم قال تعالى ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالبعث والحساب، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب، وهذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ كرَّر الردع والزجر لهم بقوله ﴿كَلَّآ﴾ ثم قال ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إنَّ هذا القرآن موعِظةٌ بليغةٌ، كافية لاتِّعاظهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف، مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو جل وعلا أهلٌ لِأن يُتَّقَى لشدة عقابه، وأهل لأن يَغفِر الذنوب لكرمه

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦٢.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٧٣.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٠. (ش): هجَّن الأمرَ، تهجينًا: قبَّحه وعَابَه.
(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢١٢.

وسعة رحمته، قال الألوسي: حقيق بأن يُتَّقَى عذابُه ويؤمَن به ويُطاع وحقيقٌ بأن يَغفِر لمن آمن بـه وأطاعـه»[١]. وفي الحديث عن أنس «أن رسـول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ثـم قـالَ: «قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَلَا يُجْعَلْ مَعِـي إِلَهٌ، فَمَن اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا، كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»[٢].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿عَسِيرٌ.. يَسِيرٍ﴾ كما أن بين اللفظتين جناس الاشتقاق.

٢ - المقابلة بين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وبين ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾.

٣ - الإطناب بتكرار الجملة ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ زيادة في التوبيخ والتشنيع.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾.

٥ - تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

٦ - الطباق بين ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

٧ - أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟

٨ - التشـبيه التمثيلي ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ لأن وجه الشـبه منتزع من متعدد.

٩ - الإيجـاز بحذف بعـض الجمـل ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر، فحذف اعتمادًا على فهم المخاطبين.

١٠ - الاستفهام للتهويل والتفخيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟

١١ - ذكـر الخاص بعد العام ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ خصَّه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب[٣].

١٢ - السجع المرصَّع مثل ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ ومثل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) ٢٩/ ١٣٥.

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وأشار الحافظ ابن كثير إلى ضعفه، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٥، ٤٦].

٧٥ سُورَةُ القِيَامَةِ ٤٠

مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة القيامة مكية، وهي تعالج موضوع «البعث والجزاء» الذي هو أحد أركان الإيمان، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، على أن البعث حق لا ريب فيه ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

* ثم ذكرت طرفًا من علامات ذلك اليوم المهول، الذي يخسف فيه القمر، ويتحير البصر، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾.

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه، فقد كان عليه السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار، ينظرون إلى الرب جل وعلا، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار، حيث تكون الأهوال والشدائد، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿أَيَحۡسَبُ

ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

اللغة: ﴿بَنَانَهُۥ﴾ البَنان: أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ ... عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ [1]

﴿بَرِقَ﴾ فَزِع وبُهِت وتَحيَّر، وأصله النظر إلى البرق فيدهش البصر قال ذو الرمة:

وَلَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ تَعَرَّضَتْ ... لِعَيْنَيْهِ مَيٌّ سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ [2]

﴿وَزَرَ﴾ ملجأ وحصن يتلجىء إليه ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حَسَنةٌ مُشرِقة متهلّلة، والنُضرة: النعمة وجمال البشرة والإشراقة الجميلة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ شديدة الكلوحة والعبوس يقال: بَسَرَ وجهه إذا اشتد في عبوسه وكلاحته[3] ﴿فَاقِرَةٌ﴾ الفاقرة: الداهية والأمر العظيم يقال: فَقَرته المصيبة، أي: كسرت

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٩٢. (ش): النابغة الذبياني شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. سَقَطَ النصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعْقَدُ النصيف: الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها وعنقها وجيبها. وَاتَّقَتْنا بِاليَدِ: احترست بيدها. أي إنها عندما سقط خمارها عن وجهها، التقطَتْه بيدها، وغطَّت وجهها بيدها الأخرى. بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ: رخْص: رطِب. يقصد يدها الليِّنة الملساء المخضَّبة، أي التي تغيّر لونُها بالحِنّاء. كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعقَدِ: شبَّه أصابع يدها بشجر لين الأغصان. وفي البيت إقواء: وهو اختلاف حركة الرَوِيّ (الحَرْفُ الذي تُبنَى عليه القصيدة). فحركة الرويّ في البيت الأول الكسرة (بِالْيَدِ). وفي البيت الثاني تغيرت حركة الرَوِيّ من الكسرة إلى الضمة (يُعقَدُ).

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٢. (ش): سَافِرًا: بارزة الوجه قد ألقت عنها نقابها. يَبْرُقُ: يبقى مفتوح العين كالمتحير.

(٣) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

فَقَار ظهره[١] ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر في مشيته اختيالاً وكِبْرًا.

التفسير: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي وأقسم بالنفس المؤمنة التقية، التي تلوم صاحبها على ترْك الطاعات، وفعل الموبقات قال المفسرون: ﴿لَآ﴾ لتأكيد القسم، وقد اشتهر في كلام العرب زيادة ﴿لَآ﴾ قبل القسم لتأكيد الكلام، كأنه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قسم، وجوابُ القسم محذوف تقديره «لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ» دل عليه قوله ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟[٢].. أقسم تعالى بيوم القيامة لعِظَمِه وهوْله، وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وتستغفر وتنيب مع طاعتها وإحسانها قال الحسن البصري: هي نفس المؤمن، إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه: ماذا أردتُ بكلامي؟ وماذا أردتُ بعملي؟ وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[٣] ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي أيظن هذا الإنسان الكافر، المكَذِّب للبعث والنشور، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها؟ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في «عدي بن ربيعة» جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، حدثني عن يوم القيامة، متى يكون؟ وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: لو عايَنْتُ ذلك اليوم لم أصدِّقْك يا محمد ولم أومن بك، كيف يجمع الله العظام؟ فنزلت هذه الآية[٤]، قال تعالى ردًّا عليه[٥] ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه، التي هي أصغر أعضائه، وأدقها أجزاءً وألطفها التئامًا، فكيف بكبار العظام؟ وإنما ذكر تعالى البنان، وهي رءوس الأصابع لما فيها من غرابة الوضع، ودقة الصنع، لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع إنسان، لا تماثلها خطوطٌ أُخرى في أصابع شخص آخر على وجه الأرض، ولذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، ويقدم على الشهوات والآثام، دون وازع من خُلُق أو دين، وينطلق كالحيوان ليس له هَمٌّ إلا نَيْل شهواته البهيمية، ولذلك ينكر القيامة ويكذب بها ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي

---

(١) (ش): فَقارة: واحدة من عظام السِّلسلة العظميَّة الظهريّة الممتدّة من الرأس إلى العُصْعُص، وهي خرزات منضَّدَة بعضها فوق بعض وفيها النّخاع الشَّوكي وتتفرَّع خلالها الأعصاب الشَّوكيَّة. والجمع فَقَار.

(٢) انظر التسهيل ٤/ ١٦٣، والألوسي ٢٩/ ١٣٥، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٠.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٢.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٧١. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٥) ثبت علميًا أن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقة، منها ما هو على كل بشكل «أقواس، أو عراوٍ، أو دوَّامات» وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه إنسان فيها آخر، ولهذا اعتمدَتْها الدول رسميًا وأصبحت تميز الإنسان ببصمة الإبهام، فتبارك الله أحسن الخالقين. انظر ما كتبناه في كتابنا «التبيان في علوم القرآن» حول هذه المعجزة العلمية ص ١٣٦.

يسأل هذا الكافر الفاجر على سبيل الاستهزاء والتكذيب متى يكون هذا اليوم يوم القيامة؟[١] قال الرازي: والسؤال هنا سؤال مُتَعَنِّتٍ ومُستَبعِدٍ لقيام الساعة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨]؟ ولذلك ينكر المعاد ويكذب بالبعث والنشور، والغرض من الآية ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يُقر بالحشر والنشر، وبعث الأموات، لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية، فيكون أبدًا منكرًا لذلك، قائلًا على سبيل الهزء والسخرية: أيَّان يومُ القيامة، قال تعالى ردًا على هؤلاء المنكرين: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي فإذا زاغ البصر وتحيَّر، وانبهر من شدة الأهوال والمخاطر ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه وأظلم ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي جمع بينهما يوم القيامة، وأُلْقِيَا في النار ليكونا عذابًا على الكفار قال عطاء: يُجمَعان يوم القيامة ثم يُقذَفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[٢] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي يقول الفاجر الكافر في ذلك اليوم: أين المهرب؟ وأين الفرار والمنجى من هذه الكارثة الداهية؟ يقول قول الآيِس، لعلْمه بأنه لا فرار حينئذٍ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ردعٌ له عن طلب الفرار، أي ليرْتَدِع وينزَجِر عن ذلك القول، فلا ملجأ له، ولا مُغِيث من عذاب الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي إلى الله وحده مصير ومرجع الخلائق قال الألوسي: إليه جل وعلا وحده استقرار العباد، لا ملجأ ولا منجى لهم غيره[٣]... والمقصود من الآيات بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحَارُ من شدة الأهوال[٤]؛ ومن عِظَم ما تشاهده من الأمور العظيمة، والإنسان يطيش عقله، ويذهب رشده، ويبحث عن النجاة والمخلص، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، ما قدَّمه منها في حياته، ما أخره بعد مماته، من سنةٍ حسنة أو سيئة، ومن سمعة طيبةٍ أو قبيحة[٥] وفي الحديث «مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ»[٦] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي بل هو شاهد على نفسه،

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢١٨.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١١٣، وروى عن مجاهد أن المراد كُوِّرَا كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وقيل: المراد جُمِعا فطلعًا من المغرب، ولا يناسبه لأن الكلام عن القيامة.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/ ١٤٠.

(٤) (ش): حار بصرُه: ارتدَّ بعد أن عجز عن مواصلة النَّظر إلى الشَّيء.

(٥) هذا معنى ما روى عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح. وقيل: بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره.

(٦) الحديث في الصحاح. (ش): عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَال =

وسوء عمله، وقُبْح صَنِيعه، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والهاءُ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ للمبالغة كراوِيَة وعلاَّمَة قال ابن عباس: الإنسان شاهد على نفسه وحده، يشهد عليه سمعُه، وبصرُه، ورِجْلاه، وجوارحُه[1] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة ليبرِّر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنه شاهدٌ على نفسه، وحُجةٌ بَيِّنَةٌ عليها قال الفخر: المعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه، وجادل عنها، وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه بما جَنَت واقترفَتْ من الموبقات[2]. وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلَّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي إن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فإذا قرأه عليك جبريل، فأَنصِتْ

= «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالآيَةَ الَّتِى فِى الْحَشْرِ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ الِاسْتِنَانَ بِمَعْنَى الِاخْتِرَاعِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِهِ الْحَدِيثُ هُوَ الصَّدَقَةُ الْمَشْرُوعَةُ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ هَاهُنَا مِثْلُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ سُنَّةً، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ سُنَّةً أَيْقَظَهَا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِفِعْلِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً وَابْتَدَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً. فَإِذًا؛ قَوْلُهُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً»، مَعْنَاهُ: مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةٍ، لَا مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً. وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَيِ الْجَوَابِ: أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ مِنْ أَصْلٍ، لِأَنَّ كَوْنَهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ فِي الْحَدِيثِ إِمَّا حَسَنَةً فِي الشَّرْعِ وَإِمَّا قَبِيحَةً بِالشَّرْعِ، فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّنَنِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتَبْقَى السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ مُنَزَّلَةً عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي ثَبَتَ بِالشَّرْعِ كَوْنُهَا مَعَاصِيَ، كَالْقَتْلِ الْمُنَبَّهِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، (رواه البخاري). وَعَلَى الْبِدَعِ، لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ ذَمُّهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا بِالشَّرْعِ، (انظر: الاعتصام (١/ ١٧٩ - ١٨١). فالحديث لا يُثبت الابتداع الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً»، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد ردّ النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلًا في الشرع من الصلاة والصيام؟

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١١٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٢٢.

لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرِّك شفتَيْك أثناء قراءته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعالِج من التنزيل شدةً، فكان يحرك به لسانه وشفتيه، مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ..﴾ الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق[1] واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عَزَّ وَجَلَّ[2] قال ابن عباس ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمعْ وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ قال: أن نبينه بلسانك[3] وقال ابن كثير: كان ﷺ يبادِر إلى أخْذ القرآن، ويُسابِق الملك في قراءته، فأمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوتُه، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[4] ثم عاد الحديث عن المكذبين بيوم الدين فقال تعالى مخاطبًا كفار مكة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي ارتَدِعوا يا معشر المشركين، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قومٌ تحبون الدنيا الفانية، وتَتْركون الآخرة الباقية، ولذلك لا تفكرون في العمل للآخرة مع أنها خيرٌ وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ لما ذكر تعالى أن الناس يُؤْثِرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسَرَّاتها الباقية، وَصَف ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق إلى فريقين: أبرار، وفُجَّار، والمعنى وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة، من أثر النعيم، وبشاشة السرور عليها، كقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جلّ وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب. قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق[5]، وبذلك وردت النصوص الصحيحة[6] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي ووجوهٌ يوم القيامة عابسة كالحة، شديدة العبوس والكلوح، وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تتوقع أن

---

(١) (ش): (أَطْرَقَ): سكت وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض منصِتا متفهِّمًا.

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٣) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٧٦.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٠.

(٦) هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ» الحديث وفي صحيح مسلم: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة وأوَّلوا الآية: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطل لأن «نظر» بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٦.

(ش): المعنى أن «نظر» بمعنى «انتظر» يتعدى بغير حرف الجر، فلا يقال: نظر إلى الثواب، بمعنى انتظر الثواب.بل يقال: نظر الثواب – بدون حرف الجر «إلى».

تنـزل بهـا داهية عظمى، تقصِم فَقَار الظهر، قال ابن كثير: هـذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة كالحة عابسـة، تسـتيقن أنها هالكة[١]، وتتوقع أن تَحِلَّ بها داهيةٌ تكسـر فَقَار الظهر ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزَجْـر عـن إيثـار العاجلـة، أي: ارتدعوا يا معشـر المشـركين عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر، فإن الدنيا دار الفناء، ولا بد أن تتجرعوا كأس المَنِيَّة[٢]، وإذا بلغت الروح ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أعالي الصدر[٣]، وشارف الإنسان على الموت ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي وقـال أهلـه وأقربـاؤه: من يَرقِيه ويشـفِيه ممَّا هو فيـه؟ قال في البحـر: ذكَّرهم تعالى بصعوبـة الموت، وهـو أول مراحل الآخرة، حين تبلغ الروح التراقي وهي عظام أعلى الصدر فقال أهله: من يرقي ويَطُبُّ ويشـفي هذا المريض؟[٤] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ أي وأيْقَن المحتضِر أنه سـيفارق الدنيـا والأهل والمـال، لمعاينته ملائكـة المـوت ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي والتفَّت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى، من شدة كرب الموت وسكراته قال الحسن: هما ساقاه إذا التفَّتـا في الكفـن[٥]، وروي عـن ابن عباس أن المراد اجتمعت عليه شـدة مفارقة الدنيا، مع شـدة كرب الآخرة، كما يقال: شـمَّرت الحرب عن ساق، اسـتعارةً لشدتها[٦] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي إلـى الله جل وعلا مسـاق العباد، يجتمـع عنده الأبرار والفجار، ثم يُسَـاقُون إلى الجنـة أو النار قـال الخازن: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يُسَـاقُون إليه يـوم القيامة ليفصل بينهـم ثـم أخبر تعالى عـن حال الجاحـد المكـذب فقـال ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾[٧] أي لم يصدق بالقـرآن، ولـم يصلِّ للرحمن قال أبو حيـان: والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ فإنها كانت مشـيته ومشـية قومه بني مخزوم، وكان يكثر منها[٨] ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكـن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي ذهب يتبختر في مشـيته، وذلـك عبارة عن التكبر والخيـلاء ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ أي ويلٌ لك يا أيها الشقي ثم ويلٌ لك قال المفسرون: هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذيـر والتهديـد وأصلها أنها أفْعَلُ تفضيل من وَلِيَه الشـيء إذا قاربه ودنـا منه، أي: ولِيَك الشـر وأوشـك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمركذ... روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٧٨.

(٢) (ش): المَنِيَّة: الموت.

(٣) قال الفخر الرازي: واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول ابن الصِّمَّةِ:

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتُ عَنْهَا ... وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٣. (ش): يَطُبُّ: يداوي ويعالج.

(٥) انظر البحر المخيط ٨/ ٣٩٠.

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٧.

(٧) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٩.

(٨) البحر المخيط ٨/ ٣٩١. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدًا.

قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ فقال أبو جهل: أتتوعدني يا محمد وتهددني؟ والله لا تستطيع أنتَ وربُك أن تفعلا بي شيئًا، والله إني لأعزُّ أهل الوادي، ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شر قتلة[1] ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ كرره مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر وانتبه لنفسك، قبل نزول العقوبة بك. ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ أي أفيظن الإنسان أن يُترك هملًا، من غير بعثٍ ولا حساب ولا جزاءٍ؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحسبان ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير أي أمَا كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يُراقُ ويُصَبُّ في الأرحام؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى البول ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد يشبه العلقة، فخلقه الله بقدرته في أجمل صورة، وسَوَّى صُورتَه وأتقنها في أحسن تقويم ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي فجعل من هذا الإنسان صنفين، ذكرًا وأنثى بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أليس ذلك الإله الخالق الحكيم، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة، وأوجد الإنسان من ماءٍ مهين، بقادرٍ على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير. روي أن النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم بلى»[2].

---

(١) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، فلما سمع أبو جهل بذلك؛ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسْمَعُ ابن أبي كبشة يخبركم: أن خزَنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة، فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ؛ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئًا، فأخزاه الله يوم بدر» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدًا). وعن قتادة؛ قال: في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدو الله أبي جهل، ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فقال عدو الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟! والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئًا؛ والله لأنا أعزُّ مَن مشى بين جبليها» (رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد ضعيف).

(٢) (ش): عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ وَكَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قَالَ: «سُبْحَانَكَ فَبَلَى»، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-.(رواه أبو داود، وصححه الألباني).
ويُرْوَى عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ قَرَأَ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فَبَلَغَ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فَلْيَقُلْ آمَنَّا بِاللهِ». (رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَ .. وَأَخَّرَ﴾ وكذلك بين ﴿صَدَّقَ .. وَكَذَّبَ﴾[1].

٢ - الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ لأن الغاية التوبيخ والتقريع.

٣ - استبعاد تحقق الأمر ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار.

٤ - الجناس غير التام بين ﴿بَنَانَهُۥ﴾ و ﴿بَنَانَهُۥ﴾ لاختلاف بعض الحروف.

٥ - المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وبين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ..﴾ الخ.

٦ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾.

٧ - المجاز المرسل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ عبر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٨ - الالتفات ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى المخاطب تقبيحًا له وتشنيعًا.

٩ - توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع مثل ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وهذا من خصائص القرآن، معجزة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٣٣، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٣.

سُورَةُ الإِنسَانِ ٧٦ ٣١

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الدهر من السور المدنية، وهي تعالج أمورًا تتعلق بالآخرة، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، ويكاد يكون جو السورة هو جو السور المكية لإيحاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار، وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾.

* ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرًا﴾.

*ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب، فوصفتهم بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء الذي تكلح فيه الوجوه[1] ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ الآيات.

* وأشادت -بعد ذكر أوصافهم- بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾.

* وتتابعت السورة في سرد أهل الجنة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾.

---

(١) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ
نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا
﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا
قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا
عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا
تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا
كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ
آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا
بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

اللغة: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط جمع مَشْج ومَشِيج مثل شريف و أشراف، يقال للشيء إذا خُلط بغيره: مشيجٌ كخَليط لفظًا ومعنى ﴿مُّسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا غاية الانتشار يقال: استطار الشيء انتشر ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ القمطرير: الشديد العصيب الذي يطول بلاؤه قال الأخفش: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء[1] ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سُخِّرت وقُرِّبَتْ ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ السلسبيل: الشراب اللذيذ الذي هو غاية في السلالة، والذي يسهل في الحلق لعذوبته وصفائه ﴿سُندُسٍ﴾ السندس: الرقيق من ثياب الحرير ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ثياب الحرير الغليظة ويسمى الديباج ﴿أَسْرَهُمْ﴾ الأسر في الاصل: الشَّدّ والربْط، ثم أطلق على الخلق يقال: شدَّ أسْره، أي: أحسنَ خلْقه وأحكم تكوينه، قال الأخطل:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ ... سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالا [2]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق ١٩/ ١٤٩. (ش): مُجْتَنِب: على وزن مُفْتَعِل، من الجَنِيبَة: وهي الفرس تُقاد ولا تركب وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل. وكلُّ طائِعٍ مُنْقادٍ جَنِيبٌ. =

التفسير: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أي كان من العدم، لم يكن له ذكر ولا وجود قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يُذْكَر لحقارته وضَعْفه[1] قال المفسرون: ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ بمعنى قد أتى كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل أكرمتك، هل وعظتك؟ ومقصودك أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته، والمرادُ بالإنسان الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه[2]، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئًا مَنسِيًّا لا يُفْطَن له، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماءً مهينًا لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومرَّ عليه حينٌ من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وإنشاءه، بعد أن كان مغمورًا ومنسيًّا لا يعلم به أحد.. وبعد أن قرر أن الإنسان مرَّ عليه وقت لم يكن موجودًا، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متَّعه بنعمة العقل والحواس فقال ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة «البويضة الأنثوية» فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب قال ابن عباس: ﴿أَمۡشَاجٖ﴾ يعني أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال[3] ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، لننظر أيَشْكُر أم يكفُر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلًا مميزًا، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات التنزيلية، ويبصر الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم قال الإمام الفخر: أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾[4] [مريم: ٤٢]؟ وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصَّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواسِّ وأشرفها[5] ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بَيَّنَّا لِلإنسان

= سَلِسِ الْقِيَادِ: طيِّع: سهل الانقياد. تَخَالُهُ: تظُنُّه. اختالَ الشَّخصُ: تكبّر، تصرَّف بطريقة تدل على التَّباهي. اختال في مَشْيه: تبختر، تمايل كِبْرًا.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٨٠.

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٨٠.

(٤) (ش): أنكر إبراهيم عليه السلام على أبيه عندما عبَد ما لا يبصر ولا يسمع، ﴿قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢]. فدل هذا على أن الذي لا يسمع ولا يبصر لا يغني شيئًا، وأنه لا يستحق العبادة، والله عز وجل مستحقٌّ للعبادة، وهو الخالق سبحانه وتعالى، فلزم من ذلك: أنه سميع بصير.

(٥) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣٧.

وعرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل، وإنزال الكتب.. أخبر تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيَّن له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر، ولهذا قال بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إما أن يكون مؤمنًا شاكرًا لنعمة الله، فيسلك سبيل الخير والطاعة، وإما أن يكون شقيًّا فاجرًا، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور قال المفسرون: المراد هديناه السبيل ليكون إمَّا شاكرًا وإمّا كفورًا، فالله تعالى دلَّ الإنسان على سبيل الشكر والكفر، وعلى الإنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادةً واختيارًا هما مناط التكليف، كقوله تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[1] [الإسراء: ١٩]. وكقوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فلا إكراه لأحدٍ ولا إجبار، وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار[2].. ثم بعد هذا البيان الواضح، بيَّن ما أعدَّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيودًا تُشَدُّ بها أرجلهم، وأغلالًا تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وسعيرًا، أي: نارًا موقَدَة مستَعِرة يُحرقون بها كقوله تعالى ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبرارًا بطاعتهم الجبار، فإنهم يشربون كأسًا من الخمر، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكافور، قال المفسرون: الكافور طيبٌ معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس الطيب عند العرب، والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحان شذاها كالكافور[3]. قال ابن عباس: الكافور اسم عين ماءٍ في الجنة يقال له: عين الكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألذَّ شراب، ولهذا قال تعالى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عينٍ جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار، وصفهم بالعبودية تكريمًا لهم وتشريفًا بإضافتهم إليه تعالى ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرو لها حيث شاءوا من الدور والقصور قال الصاوي: المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم، وَرَدَ أن الرجل منهم يمشي في بيوته، ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله،

(١) (ش): قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣. (ش): فاحَ الشيءُ، فَوْحًا وفَوَحانًا: انتشرت رائحته. الشَّذا: قوّة الرّائحة.

ويتبعه حيثما صعد إلى أعلَى قصوره[١] ولما ذكر ثواب الأبرار، بيَّن صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم مِن نَذْرٍ في طاعة الله[٢]، إذا نذروا طاعةً فعلوها قال الطبري: النذرُ كلُّ ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل، فإذا نذروا بَرُّوا بوفائهم لله بالنذور التي في طاعة الله، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة قال المفسرون: وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى[٣] ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي ويخافون هول يوم عظيم كانت أهوالُه وشدائدُه - من تفطُّر السموات، وتناثُر الكواكب، وتَطايُر الجبال، وغير ذلك من الأهوال - ممتدةً منتشرةً فاشيةً، بالغةً أقصى حدود الشدة والفزع، قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى بلغ السموات السبع والأرض[٤] ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي ويطعمون الطعام مع شهوتهم له، وحاجتهم إليه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ويتيمًا مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيرًا وهو من أُسر في الحرب من المشركين قال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيُؤْثِره على نفسه[٥].. نبَّه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، في سدِّ جَوْعتهم وجَوْعة عيالهم، يطيبون نفسًا عنه للبؤساء، ويُؤْثِرونهم به على أنفسهم كقوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأةً، ولا نقصد الحمد والثناء منكم قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به في قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب[٦] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله، وهو يومٌ قمطرير أي شديد عصيب[٧] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي حماهم الله ودفع عنهم شرَّ ذلك اليوم وشدته ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي وأعطاهم نضرةً في الوجه، وسرورًا في القلب، والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٧٤. (ش): روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن عبد الله بن شوذب (وهو من أتباع التابعين) أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: « معهم قضبان الذهب يفجرون ما ينبع بقضبانهم، حيث مالوا مالت معهم ».

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٩.

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٤١.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٩.

(٥) «روح المعاني» ٢٩/ ١٥٥. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٢.

(٧) قال الطبري: ﴿قمطرير﴾ شديد يقال: يوم قمطرير أي شديد عصيب. اهـ. ٢٩/ ١٣١.

والتفخيم ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال، جنةً واسعة وألبسهم فيها الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣].. وفي الآية إيجازٌ، آخِذٌ بأطراف الإعجاز، فقد أشار تعالى بقوله ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار، والمطاعم والمشارب الهنية، فإن الجنة لا تسمَّى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة كما قال تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وأشار بقوله ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس، التي من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس، وهو قُصارَى ما تتطلع له نفوس الناس.. ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومساكنهم فقال ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسِرَّة المُزَيَّنة بفاخر الثياب والسُّتور قال المفسرون: الأرائك جمع أريكة وهي السرير ترخى عليه الحجلة -والحجلة هي ما يُسدَل على السرير من فاخر الثياب والستور- وإنما خصَّهم بهذه الحالة لأنها أتمّ حالات المتنعِّم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجدون فيها حرًا ولا بردًا، لأن هواءها معتدل فلا حرَّ ولا قرَّ[1]، وإنما هي نسمات تهبُّ من العرش تُحْيِي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي ظلال الأشجار في الجنة قريبةٌ من الأبرار ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي أُدْنِيَت ثمارُها منهم، وسَهل عليهم تناولُها قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلَّت إليه حتى يتناول منها ما يريد[2].. ولما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم، وصف بعد ذلك شرابهم فقال ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشراب على عادة أهل الترف والنعيم في الدنيا فيتناول كل واحدٍ منهم حاجته، وهذه الأواني هي الصّحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١] قال الرازي: ولا منافاة بين الآيتين، فتارةً يسقون بهذا، وتارة بذاك[3] ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي وأكواب وهي كالأقداح رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه قال في البحر: ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ أن الله تعالى أوجدها بقدرته، فيكون تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها، وشفيف القوارير وصفائها[4] ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي هي جامعة بين صفاء الزجاج، وحسن الفضة قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى ولو أخذت فضةً من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل

(١) (ش): القَرُّ: البرد.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٧.
(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٤٩.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩٧.

جناح الذباب، لم يُرَ الماء من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنة ببياض الفضة، مع صفاء القوارير[١] ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّرها السُّقاة على مقدار حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألذُّ وأشهى قال ابن عباس: أتوابها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئًا، ولا يشتهون بعدها شيئًا[٢] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجةً بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته قال القرطبي: فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة الطيب[٣] قال قتادة: الزنجبيل اسمٌ لِعَيْنٍ في الجنة يشرب منها المقربون صِرْفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنة[٤] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، لسهولة مساغها وانحدارها في الحلق قال المفسرون: السلسبيل: الماء العذب، السهل الجريان في الحلق لعذوبته وصفائه، وإنما وصف بأنه سلسبيل، لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لذعته، فيشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحَرَافَته[٥]، فيبقى الشراب سلسبيلاً، سهل المسَاغ في الحلق ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار، غلمانٌ يُنشِئُهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء قال القرطبي: أي باقون على ما هم عليه من الشباب، والنضارة، والغضاضة، والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مَرِّ الأزمنة[٦] ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوهم، كأنهم اللؤلؤ المنثور قال الرازي: هذا من التشبيه العجيب، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر، لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أرْوَع وأبْدَع[٧]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت هناك ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يُوصَف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما في الحديث القدسي «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْن رَأَتْ، وَلاَ أُذُن سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[٨] قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أن «أقل أهل الجنة منزلةً من له قَدْر الدنيا وعشرة أمثالها»[٩] فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٥٩.
(٢) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٦٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤٠.
(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٣٩٨.
(٥) (ش): الحَرافَة: حِدَّة في الطَّعم تحرِق اللِّسانَ والفمَ وتلذعهما كأثر الفلفل وغيره.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤١.
(٧) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٥١.
(٨) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٩) (ش): رواه البخاري ومسلم.

من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلةً وأحْظَى عنده تعالى؟[١] ثم زاد تعالى في بيان وصف نعيمهم فقال ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ أي تعلوهم الثياب الفاخرة الخضراء، المزينة بأنواع الزينة، من الحرير الرقيق وهو السندس والحرير الثخين وهو الإستبرق فلباسهم في الجنة الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣] قال المفسرون: السندس ما رَقَّ من الحرير، والإستبرق ما غَلُظ من الحرير، وهذا لباس الأبرار في الجنة، وإنما قال ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ لِيُنَبِّه على أن لهم عِدَّةً من الثياب، ولكنَّ الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلها ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ أي وألبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية وعبَّر بالماضي إشارةً لتحقق وقوعه قال الصاوي: فإن قيل: كيف قال هنا ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ وفي سورة الكهف ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [الكهف: ٣١] وفي سورة فاطر ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ [فاطر: ٣٣]؟ فالجواب أنهم تارةً يلبسون الذهب فقط، وتارةً يلبسون الفضة، وتارةً يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ[٢] ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ أي سقاهم الله فوق ذلك النعيم شرابًا طاهرًا لم تدنسه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيا قال الطبري: سُقي هؤلاء الأبرار شرابًا طهورًا، ومن طُهْره أنه لايصير بولًا نجسًا، بل رشحًا من أبدانهم كرشح المسك، روي أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقي شرابًا طهورًا، فيصير رشحًا يخرج من جلده أطيب ريحًا من المسك الأذْفَر[٣] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ أي يقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها: هذا مقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ أي وكان عملكم مقبولًا مرضيًّا، جوزيتم عليه أحسن الجزاء، مع الشكر والثناء. . مرَّ في الآيات السابقة أن الله تعالى أعدَّ للكافرين السلاسل والأغلال، كما هيأ للأبرار أرائك يتكئون عليها، وعليهم ثياب السندس والإستبرق، وفي معاصمهم أساور الفضة، وبين أيديهم ولدانٌ مخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور، يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية النقية، وقد مُلِئَتْ شرابًا ممزوجًا بالزجبيل والكافور، وكل ذلك للترغيب والترهيب، على

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٤. (ش): حظِيَ فلانٌ عند النَّاس: علا شأنُه عندهم وأحبّوه، فهو حَظِيّ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٧٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٣٧. (ش): في أكثر من طبعة: «أطيبُ ريحًا من المسك الإذخر»، والتصحيح من «تفسير الطبري». المسك الأذْفَر: المسك شديد الرائحة. والإذْخِر: جمع إذخرة: نبات طيب الرائحة. وما ذكره المؤلف رواه الطبري عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ في تفسيره للآية. وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: «فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جِلْدِهِ، فَإِذَا بَطْنُهُ قَدْ ضَمُرَ» (رواه أحمد، وصححه الألباني والأرنؤوط). ضمُر الشَّيءُ: انكمش وانضمَّ بعضُه إلى بعض.

طريقة القرآن في المقارنة بين أحوال الأبرار والفجار.. وبعد هذا الوضوح والبيان، كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصَّدِّ والإعراض، والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وكان الرسول يتألم ويحزن لموقف المعاندين، لذلك جاءت الآيات تشدُّ من عزيمته، وتُسَلِّيه وتخفف عن قلبه الشريفِ آثارَ الهَمِّ والضجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مُفَرَّقًا، لتُذَكِّرهم بما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلا تبتَئِسْ ولا تحزَنْ ولا تَضْجَر[1]، فالقرآن حقٌّ ووعده صدقٌ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه، فلا بدَّ أن ينتقم منهم، ويُقِرَّ عينَك بإهلاكهم، إنْ عاجلًا أو آجلًا[2] ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿آثِمًا﴾ منغمسًا في الشهوات، غارقًا في الموبقات ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي ولا تطع من كان مبالغًا في الكفر والضلال، لا ينزجر ولا يرعوي[3]، وصيغة ﴿كَفُورًا﴾ من صيغ المبالغة ومعناها المبالِغ في الكفر والجحود قال المفسرون: نزلت في «عتبة بن ربيعة» و «الوليد بن المغيرة» قالا للنبي ﷺ: إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك، فقال عتبة: أنا أُزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى فنزلت[4]، والأحسنُ أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ لربك وأَكْثِرْ من عبادته وطاعته ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره، في الصباح والمساء ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي ومن الليل فصَلِّ له، متهجدًا مستغرقًا في مناجاته ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأَكْثِرْ من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام[5] والناس نيام كقوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] والمقصود أن يكون عابدًا لله ذاكرًا له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبه ولسانه، ليتقوى على مجابهة أعدائه.. وبعد تسلية النبي الكريم، عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجرمين فقال ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة، وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ويتركون أمامهم يومًا عسيرًا شديدًا، عظيم الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن بقدرتنا أوجَدْناهم من العدم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى كانوا أقوياء أشِدَّاء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو أردنا أهلكناهم، ثم

---

(١) (ش): ضجِرَ: تبرَّمَ وقَلِقَ، ضاقَ، اغتمَّ.

(٢) (ش): أقرَّ اللهُ عينَه: أعطاه ما يشتهيه ويرضاه.

(٣) (ش): يرعوي: يرتَدِع.

(٤) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٥٨، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤٧، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) (ش): جَناح: جانب. جُنْح اللَّيْل/ جِنْح اللَّيْل: ظلامه.

بدلنا خيرًا منهم يكونون أعْبَدَ لله وأطْوَعَ، وفي الآية تهديدٌ ووعيد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعناها الدقيق، ولفظها الرشيق، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي فمن أراد الانتفاع والاعتبار وسلوك طريق السعادة، فليعتَبِر بآيات القرآن، وليستَنِر بنوره وضيائه، وليتَّخِذْ طريقًا موصلًا إلى ربه، بطاعته وطلب مرضاته، فأسباب السعادة ميسورة، وسبل النجاة ممهدة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي وما تشاءون أمرًا من الأمور، إلا بتقدير الله ومشيئته، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته، قال ابن كثير: أي لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعًا، إلا بمشيئة الله تعالى[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي عالمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه، يعلم من يستحق الهداية فييسِّرها له، ومن يستحق الضلالة فيسهل له أسبابها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أي يدخل من شاء من عباده جنَّته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ أي وأما المشركون الظالمون فقد هيأ لهم عذابًا شديدًا مؤلمًا في دار الجحيم، ختم السورة الكريمة ببيان مآل المتقين، ومآل الكفرة المجرمين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿شَاكِرٗا .. كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكۡرَةٗ .. وَأَصِيلٗا﴾ وبين ﴿شَمۡسٗا .. زَمۡهَرِيرٗا﴾.

٢ - اللف والنشر المشوش ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ فإنه قدَّم أولًا ذكر الشاكر ثم الكافر ﴿شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول ففيه لف ونشر غير مرتب.

٣ - المجاز العقلي ﴿يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه كـ (نهاره صائم).

٤ - الجناس غير التام ﴿فَوَقَىٰهُمۡ .. وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ فبين وقاهم ولقاهم جناس.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٦ - الطباق ﴿يُحِبُّونَ .. وَيَذَرُونَ﴾.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ أي يقال لهم: إن هذا.. إلخ.

٨ - التشبيه البديع الرائع ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ أي كاللؤلؤ المنتثر.

٩ - المقابلة اللطيفة ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ قابل بين المحبة والترك وبين العاجلة والباقية.

١٠ - السجع المرصَّع مثل ﴿لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا .. شَرَابٗا طَهُورًا .. وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا .. ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدهر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) ١٤/ ٤٥٨.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ ٧٧ ٥٠

مكية وآياتها خمسون

بين يدي السورة

* سورة المرسلات مكية، وهي كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتبحث عن شئون الآخرة، ودلائل القدرة والوحدانية، وسائر الأمور الغيبية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة[1]، المكلفين بتدبير شئون الكون، على أن القيامة حق، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

* ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وُعد به المجرمون ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الآيات. * ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من نكال وعقاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن المجرمين، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين، وذكرت ما أعده الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار، عن عبادة الله الواحد القهار، وهو الطغيان والإجرام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ
نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾
أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ
نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا
﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا
ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾
كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

اللغة: ﴿فُرِجَتْ﴾ فُتِحَت وشُقَّتْ يقال: فَرَجْت الشيءَ فانفرجَ، أي: فتَحْته فانفتحَ ﴿كِفَاتًا﴾ الكفت في اللغة: الضَّمُّ والجمعَ قال الشاعر:

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيٌّ ... وَأَنْتَ غَدًا تَضُمُّكَ فِي كِفَاتِ[1]

﴿شَامِخَاتٍ﴾ عاليات مرتفعات، يقال: شَمَخ بأنفه إذا رفعَه كِبْرًا ﴿فُرَاتًا﴾ عذبًا شديد الحلاوة ﴿بِشَرَرٍ﴾ الشَّرر: ما تَطايَر من النار وتفرَّق، جمع شرَرَة.

التفسير: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ أي أُقسم بالرياح حين تهب متتابعة، يقفو بعضها أثَر بعض[2]، قال المفسرون: هي رياح العذاب التي يهلك الله بها الظالمين ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ أي

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥٩.

(٢) اختلف المفسرون اختلافًا كبيرًا في تفسير هذه الآيات الخمس فبعضهم حمَلها جميعًا على الرياح وبعضهم حملها جميعًا على الملائكة وبعضهم فصَّل، وتوقف الإمام ابن جرير. وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال: «والأظهر في: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ و﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة والأظهر في: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ و ﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ أنها الملائكة لأن قوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد إنها الرياح ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ ﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ ثم عطف بالفاء»، وهو قول جيد. (ش): قفَا الأثرَ: تتبَّعه.

وأُقسِم بالملائكة الموكَّلين بالسحُب يسُوقُونها حيث شاء الله، لتنشر رحمةَ الله - المطر - فتُحيِي به البلاد والعباد ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي وأُقْسِم بالملائكة التي تفرِّق بين الحق والباطل، والحلال والحرام[1] ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي وأُقْسم بالملائكة تَنزِل بالوحي، وتُلقِي كتب الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[2] ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي تلقي الوحي إعذارًا من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، أو إنذارًا من الله للخلق بالنقمة والعذاب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي وأُقسم بالرياح الشديدة الهبوب، إذا أُرسلت عاصفة شديدة، قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيَّرت الآثار ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: إنَّ ما توعدون به من أمر القيامة، وأمر الحساب والجزاء، كائن لا محالة قال المفسرون: أقسم تعالى بخمسة أشياء، تنبيهًا على جلالة قدر المقسم به، وتعظيمًا لشأن المقسم عليه، فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخير أو الشر، وبالملائكة الأبرار، الذي يتنزلون بالوحي للإعذار والإنذار، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما أوعد الله تعالى به المكذبين، من مجيء الساعة والثواب والعقاب، كائن لا محالة، فلا ينبغي الشك والامتراء[3].. ثم بَيَّن تعالى وفَصَّل وقت وقوع ذلك فقال ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي مُحِيَت النجوم وذهب نورُها وضياؤها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي شقت السماء وتصدَّعت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي تطايرت الجبال وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح كقوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جُعِل للرسل وقتٌ وأجَلٌ، للفصل بينهم وبين الأمم، وهو يوم القيامة[4] كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾[المائدة:١٠٩]؟ وأصل ﴿أُقِّتَتْ﴾ وُقِّتَتْ من الوقت أي يُجعَل لها وقتٌ محدد، قال الطبري: أي أُجِّلَتْ للاجتماع لوقتها يوم القيامة وقال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم[5] ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾؟ استفهامٌ لتعظيم ذلك اليوم، والتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة، أي: لأي يوم عظيم أُخرت الرسل؟ ثم قال ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي ليوم القضاء والفصل بين الخلائق، يوم يفصِل الله بين الأنبياء وأممهم المكذبين بحكمه العادل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؟ استفهام

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٠٤.

(٢) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٦٥.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٤٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٦٩.

للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل أو وجدان، ووضع الظاهر ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مكان الضمير «ما هو» لزيادة تفظيع وتهويل أمره قال الإمام الفخر: عَجَّب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أُجّلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذَّبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهورما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به، من الأهوال والعرض والحساب، ثم إنه تعالى بين ذلك فقال ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي وما أعْلَمك ما يوم الفصل وشدته ومهَابته؟[1] وجواب الشرط ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ إلخ محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره: وقع ما توعدون به، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز البياني الذي امتاز به القرآن ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود قال المفسرون: كرَّر هذه الجملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب، وفي كل جملة وَرَدَتْ إخبارٌ عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكيرٌ بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة الفجار، ولما كان في سورة الإنسان السابقة ذكر بعضًا من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار، والإيجاز في وصف المؤمنين. . ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة، وأنه حق كائن لا محالة، وبعد أن خوَّف المكذبين من شدة هول ذلك اليوم، وفظاعة ما يقع فيه، عاد فخوَّفهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل، كقوم نوح وعادٍ وثمود؟ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى «فرعون وأتباعه» ومن على شاكلتهم ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين «كفار مكة» لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهَدة، وهي أن مَن خلَقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادرًا على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماءٍ ضعيف حقير هو منيُّ الرجل؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ» الحديث[2] ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٧٠.

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ورواه ابن ماجه في سننه، وتمامه أن رسول الله ﷺ بصق يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ =

فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز[١] وهو رحم المرأة ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلى مقدار من الزمن محدَّد معيَّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فقدَرْنا على خلقه من النطفة، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الإشكال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بقدرتنا قال الصاوي: هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إنعامه عليهم، وقدرته على ابتداء خلقهم، والقادرُ على الابتداء قادر على الإعادة، ففيها رَدٌّ على المُنكرين للبعث[٢].. ثم ذكَّرهم بنعمة إيجادهم على الأرض حال الحياة، ومُوَارَاتهم في باطنها بعد الموت[٣] فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾؟ إلى ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم، تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها؟ قال المفسرون: الكَفْت: الجَمع والضَّمُّ، فالأرض تجمع وتضُمُّ إليها جميعَ البشر، فهي كالأم لهم، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور، والأموات يسكنون في بطنها في القبور ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم[٤] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض جبالاً راسخات عاليات مرتفعات لئلا تضطرب بكم[٥] ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي وأسقيناكم ماءً عذبًا حلوًا بالغ العذوبة، أنزلناه لكم من السحاب، وأخرجناه لكم من العيون والأنهار، لتشربوا منه أنتم ودوابُّكم، وتَسقُوا منه زَرعكم وأشجاركم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في دار الدنيا، وهذا الكلام تقوله لهم خزنة النار تقريعًا وتوبيخًا.. ثم وضَّح ذلك العذاب وفصَّله فقال ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ

= وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ» (ش): صححه الألباني. (البُرْد): كساء مُخَطّط أو مُزَخرف يُلتحف به. (الوَئِيد): المشي بتُؤَدَة، أي بتَأَنٍّ وتمهُّل.

(١) (ش): حَريز: حَصين، مَنيع.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٨٠.

(٣) (ش): وارَى الشيءَ: أخفاه، ستره. وارَى الميِّتَ: دفَنه.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٨.

(٥) لقد كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال قبل أن يكتشفها العلم الحديث، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبِّتها وتقيها الاضطرابَ والمَيَدانَ كما تقي أوتاد الخيمةُ الخيمةَ، وقد كشف الوحيُ عن هذا المعنى فقال في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما في جوفها من الغازات والأبخرة والمواد المتراكمة المشتعلة دائمة الاضطراب والخفقان، ولكانت كالريشة في مهب الهواء، فسبحان الحكيم العليم على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والعيون، ثم تكثر الأشجار والزروع، فالجبال مخازن للثلوج والأمطار، ومستودعات عامة لبركات السماء، ولهذا قرن تعالى بها نعمة الماء فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ فلله ما أبدع أسرار القرآن! (ش): ماد الشَّيءُ، مَيْدًا ومَيَدانًا: تحرَّك واضطرب.

شُعَبٍ﴾ أي اذهبوا فاستظلوا بدخانٍ كثيف من دخان جهنم، يتفرع منه ثلاث شعب ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يُظِلّ مَن يكون تحته، ولا يَقيه حر الشمس كما هو حال الظل الممدود، ولا هو يدفع عنه أيضًا ألسنة النار المندلعة من كل جانب قال الطبري: لا هو يُظِلّهم من حرها، ولا يَكُنُّهم من لهبها[1]، وذلك أنه يرتفع من وقود جهنم الدخان، فإذا تصاعد تفرَّق شعبًا ثلاثة[2] قال المفسرون: سمَّى العذاب ظلاًّ تهكمًا واستهزاءً بالمعذبين، فالمؤمنون في ظلال وعيون، والمجرمون في سموم وحميم، وظل من يحموم، واليحموم دخانٌ أسود قاتم، فكيف يصح أن يسمى ما هم فيه ظلًّا إلا على طريق التهكم والاستهزاء؟ ثم زاد تعالى في وصف جهنم وأهوالها فقال ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار، كلُّ شرارةٍ منه كأنها القصر العظيم قال ابن كثير: يتطاير الشرر من لهبها كالحصون[3] ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي كأن شرر جهنم المتطاير منها الإبل الصفر في لونها وسرعة حركتها قال الرازي: شبَّه تعالى الشرر في العظم بالقصر، وفي اللون والكثرة وسرعة الحركة بالجمالات الصفر[4]، وهذا التشبيه من روائع صور التشبيه، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة؟ أجارنا الله من نار جهنم بفضله ورحمته ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الله ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينطق فيه أولئك المكذبون ولا يكتمون كلامًا ينفعهم، فهم في ذلك اليوم خُرْسٌ بُكْمٌ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي ولا يقبل لهم عذرٌ ولا حجة فيما أتوا به من القبائح والجرائم، بل لا يؤذن لهم في أن يعتذروا، لأنه لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل كقوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء، جمعناكم فيه مع مَن تَقدَّمَكم من الأمم لنحكم بينكم جميعًا ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتَالُوا، وأَنقِذوا أنفسكم من بطش الله وانتقامه إن قدرتم، وهذا تعجيزٌ لهم وتوبيخ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك يومئذٍ للمكذبين بيوم الدين.. وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء المجرمين، أعقبه بذكر أحوال السعداء المتقين فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ أي الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم

(١) (ش): كَنَّ الشَّيءَ: أخفاه وستَره وصَانه.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٤٦.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٨.
(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٥٧٧.

القيامة في ظلال الأشجار الوارقة، وعيون الماء الجارية، يتنعمون في دار الخلد، والكرامة، على عكس أولئك المجرمين المكذبين، الذين هم في ظل من يحموم وهو دخان جهنم الأسود الذي لا يقي حرًّا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأُنس والتكريم: كلوا أكلًا لذيذًا واشربوا شربًا هنيئًا، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي إنا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله، وأخلص نيته، واتقى ربه ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم التي هَمُّها مَلْءُ بطونها ونَيْل شهواتها زمانًا قليلًا إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين صلُّوا لله، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله، لا يخشعون ولا يصلون، بل يظلون على استكبارهم يصرون قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ: حطَّ عنا الصلاة فإنا لا ننحني، إنها مَسَبَّة علينا، فأبَى وقال: «لا خير في دينٍ لا صلاة فيه»[1] ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾؟ أي فبأي كتابٍ وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدّقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، ونصوع الحجة، وروعة البيان، فبأي شيءٍ بعد ذلك يؤمنون؟ قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد، وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قولٍ منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئًا فقال: ويلٌ لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئًا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة[2].

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٠٨. (ش): بهذا اللفظ رواه الثعلبي في «تفسيره» عن مقاتل بدون إسناد، ومقاتل متروكٌ ومتهَمٌ بالكذب. ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: «لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ» في قصة وَفْدِ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وضعفه الألباني.

والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وقد أمر الله بالمحافظة عليها في السفر، والحضر، والسلم، والحرب، وفي حال الصحة، والمرض. وقد قال ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ: تَرْكُ الصَّلَاةِ» (رواه مسلم). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: «الْعَهْدُ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» (رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني).

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٦٧.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ وهو من المحسنات اللفظية.

٢ - الطباق بين ﴿عُذْرًا .. نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَآءً .. وَأَمْوَٰتًا﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ مَرْقُومٌ. وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ وكلها من المحسنات البديعية.

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؟ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله.

٤ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ ومثله ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟

٥ - الجناس غير التام بين لفظتي ﴿مَّهِينٍ﴾ و ﴿مَّكِينٍ﴾.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾.

٧ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قابل ذلك بقوله ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾.

٨ - أسلوب التهكم ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ﴾ سمَّى العذاب ظلًا تهكمًا وسخرية بهم.

٩ - المجاز المرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، أي: وإذا قيل لهم: صلوا لا يصلون.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .. إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلخ ويسمى بالسجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ النَّبَإِ ٧٨ ٤٠

مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة عم مكية وتسمى (سورة النبأ) لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدق ومكذب ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ..﴾ الآيات.

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ۝٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ الآيات.

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث، وحددت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ۝١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن الكافرين، تحدثت عن المتقين، وما أعد الله تعالى لهم من ضروب النعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ۝٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابًا فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ
ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ۝٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ۝٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠
وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ۝١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ۝١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ
مَآءٗ ثَجَّاجٗا ۝١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ۝١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾
جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ
صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا
قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا

اللغة: ﴿سُبَاتًا﴾ السَّبْتُ في اللغة: القطعُ، سمي الليل سُباتًا لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وَهَّاجًا﴾ الوهَّاج: المتقد المتلألئ من قولهم: وَهجت النار إذا أضاءت ﴿ثَجَّاجًا﴾ شديد الانصباب يقال: ثجَّ إذا سال بكثرة وفي الحديث «أَفْضَلُ الحَجِّ: الْعَجُّ والثَّجُّ»[1] العجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجُّ: إراقة الدماء وذبحُ الهدايا ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي التي برز نَهْدُها[2] مع ارتفاع يسير ﴿دِهَاقًا﴾ مملوءة يقال: أدهقتُ الكأسَ أي ملأتها قال الشاعر:

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا ... فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقَا[3]

التفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؟ أي: عن أيّ شيءٍ يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضًا؟ وأصل ﴿عَمَّ﴾ عنْ ما، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف ﴿مَا﴾ الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث[4] ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍّ في وقوعه، ومكذب منكرٍ لحصوله ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ وزجر، أي: ليرتدعْ أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمرًا واقعًا، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ «الْعَجُّ وَالثَّجُّ». (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

(٢) (ش): نَهْد: ثدْي.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٠٩، والقرطبي ١٩/ ١٨١. (ش): أَتْرَعَ الإناءَ: مَلأه.

(٤) هذا هو الراجح أن المراد بالنبأ العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلخ. وذكر منها تسعة أمور، وقيل: المراد بالنبأ القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

ما يحل بهم من العذاب والنكال.. ثم أشار تعالى إلى الأدلة الدالة على قدرته تعالى، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظام، قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد قال في التسهيل: شبَّهها بالأوتاد لأنها تمسكُ الأرض أن تميد[1] ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافًا ذكورًا وإناثًا، لينتظم أمر النكاح والتناسل، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضي[2] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم، قاطعًا لأشغالكم، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستركم اللباس، وتُغطّيكم ظلمته كما يغطى الثوبُ لابسه قال في التسهيل: شبهه بالثياب التي تُلبس لأنه سَتْرٌ عن العيون[3] ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهار سببًا لتحصيل المعاش، تتصرفون فيه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير: جعلناه مشرقًا مضيئًا ليتمكن الناس من التصرف فيه، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك[4] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وبنينا فوقكم أيها الناس سبع سمواتٍ محكمة الخلق بديعة الصنع، متينةً في إحكامها وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وأنشأنا لكم شمسًا منيرة ساطعة، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة والتوقد قال المفسرون: الوهَّاج المتوقد الشديد الإضاءة، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وقال ابن عباس: المنير المتلألئ[5] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقًا منهمرًا بشدةٍ وقوة قال في التسهيل: المعصرات هي السحب،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٣. (ش): مَادَ الشَّيءُ: تحرَّك واضطرب.

(٢) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريبٌ عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٣.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٩٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٧٠.

مأخوذةٌ من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء[١]، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزروع، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفةً بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها.. ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهانٍ واضح على إمكان البعث والنشور[٢]، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق، له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤] قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتًا وميعادًا للأولين والآخرين[٣] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور، فتحضرون جماعات جماعات، وزمرًا زمرًا للحساب والجزاء، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي تشققت السماء من كل جانب، حتى كان فيها صدوعٌ وفتوحٌ كالأبواب في الجدران، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١] وعبَّر بالماضي ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقق الوقوع ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها، حتى أصبح يخيَّل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء قال القرطبي: صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثًا[٤]، لعين الناظر كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء[٥] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي إن جهنم تنتظر وتترقب نزلاءها الكفار، كما يترصد الإنسان ويترقب عدوه ليأخذه على حين غرة قال المفسرون: المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، وجهنم تترصَّد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمرُّ عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المجرمين ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين في النار دهورًا متتابعةً لا نهاية

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٣.

(٢) (ش): قول المؤلف: «ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث والنشور»، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه البرهان وليست برهانًا، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٧٣.

(٤) (ش): أي صارت غبارًا متطايرًا في الجو قد ذَرَتْه الريح.

(٥) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٧.

لهـا[١] قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب أي: الدهور -وهي لا تنقطع، كلما مضى حُقْب جاء حُقْبٌ، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها[٢] قال الربيع وقتادة: هذه الأحقاب لا انقضـاء لها ولا انقطـاع[٣] ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودة تخفف عنهم حرَّ النار، ولا شـرابًا يسكِّنُ عطشهم فيها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ أي إلا ماءً حارًّا بالغًا الغاية في الحـرارة، وغسـاقًا -أي صديدًا يسـيل من جلـود أهل النـار- ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي يعاقبهم الله بذلك جزاءً موافقًا لأعمالهم السـيئة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحسـاب والجـزاء، ولا يؤمنون بلقاء الله، فجازاهم الله بذلـك الجزاء العادل ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيبًا شديدًا ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي وكل مـا فعلـوه من جرائم وآثام ضبطنـاه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقـوا يـا معشـر الكفار فلن نزيدكم على اسـتغاثتكم إلاَّ عذابًا فوق عذابكم قال المفسـرون: ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشـد من هذه الآية، كلما اسـتغاثوا بنوع من العذاب أغيثوا بأشـد منه[٤] ولما ذكر تعالى أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهـم في الدنيا، موضع ظفر وفـوز بجنات النعيم، وخلاص من عذاب الجحيم، ثم فسَّـر هذا الفوز فقال ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ أي بسـاتين ناضرة فيها من جميع الأشـجار والأزهار، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساءً عذارى نواهد قد برزت أَثْداؤهنَّ، وهنَّ في سنٍ واحدة قال في التسهيل: الكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها[٥] ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأسًـا من الخمر ممتلئةً صافية قال القرطبي: المرادُ بالكأس الخمـرُ كأنه قال: وخمـرًا ذات دِهاقٍ، أي: مملوءة قد عُصِـرَت وصُفِّيَت[٦] ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يسـمعون في الجنة كلامًا فارغًا لا فائدة فيه، ولا كذبًا من القول لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم، تفضلًا منه وإحسانًا كافيًا على حسب أعمالهم ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) ليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق، وهو كناية التأبيد، فخاطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون، وقيل: إنها في عصاة المؤمنين وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ١٧٥.

(٣) «انظر القرطبي» ١٩/ ١٨٠،و «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٨٥.

(٤) انظر «القرطبي» ١٩/ ١٨٠، و«حاشية الصاوي» ٤/ ٢٨٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٨١.

ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه في دفع بلاء، أو رفع عذاب في ذلك اليوم، هيبةً وجلالًا ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلاّ من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب قال الصاوي: وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدرون أن يشفعوا إلا بإذنه، فكيف يملك غيرهم؟[1] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعًا كريمًا بالإيمان والعمل الصالح فلْيفعلْ، وهو حث وترغيب ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذَّرْناكم وخوَّفْناكم عذابًا قريبًا وقوعه هو عذاب الآخرة، سمَّاه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته كقوله تعالى ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يُكلَّف ويقول: يا ليتني كنت ترابًا حتى لا أحاسَب ولا أعاقَب قال المفسرون: وذلك حين يحشر الله الحيوان يوم القيامة فيقتصُّ للجَمّاء من القَرْناء، وبعد ذلك يصيّرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب[2].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾.

٢ - الإيجاز بحذف الفعل لدلالة المتقدم عليه ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم.

٣ - التشبيه البليغ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه؛ فأصبح بليغًا، ومثله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أي كاللباس في الستر والخفاء.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ وبين ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

٥ - التشبيه البليغ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أي كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٨٦.

(٢) (ش): قال ﷺ: «يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَّاءَ مِنَ الْقَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى، قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وصححه الألباني). تَبِعَةٌ: ظُلامة، مَظْلَمة. الجَمّاء: التي ليس لها قرون. القَرْناء: التي لها قرون.

ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٦ - الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وفيه أيضًا التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة.

٧ - الطباق بين ﴿بَرْدًا..حَمِيمًا﴾.

٨ - ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ الروح وهو «جبريل» داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين مرة استقلالًا، ومرة ضمن الملائكة، تنبيهًا على جلالة قدره.

٩ - السجع المرصَّع مثل ﴿أَلْفَافًا، أَفْوَاجًا، أَبْوَٰبًا، مَّفَازًا، أَحْقَابًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٧٩ ٤٦

مكية وآياتها ست وأربعون

بين يدي السورة

* سورة النازعات مكية، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية الرسالة، البعث والجزاء»، ومحور السورة يدور حول القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار[1] التي تنزع أرواح المؤمنين بلطف وليـن، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن المشركين، المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة «فرعون» الطاغية، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ، وذكرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ الآيات.

* وختم السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾.

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

اللغة: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة فزعة يقال: وجف القلبُ وجيفًا إذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿الْحَافِرَةِ﴾ الرجوع إلى الحالة التي كان عليها يقال: رجع فلان في حافرته، أي: رجع من حيث جاء قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ (١)

﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ وجه الأرض، والعربُ تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة لأنه يُسهر عليها ﴿سَمْكَهَا﴾ السَّمك: العلُوُّ والارتفاع، وبناءٌ ممسوك أي عال مرتفع ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أظلم يقال: غطش الليلُ وأغْطَشه اللهُ أي صار مظلمًا وأظلمه الله ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها وسوَّاها قال زيد بن عمرو:

دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا ... بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالا (٢)

﴿الطَّامَّةُ﴾ الداهية العظمى التي لا تُستَطاع، قال الشاعر:

---

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعْتُ؟ (ش): الصَّبا: الحنين والشوق. الصِبا: صِغَرُ سِنّ وحداثةُ. شاب الرّجلُ: تقدَّم في السنِّ. صلِع الشَّخصُ: سقط شعرُ مُقدَّم رأسه أو وسطه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤١٨. (ش): بِأَيْدٍ: بقوة وقدرة عظيمة.

إِنَّ بَعْضَ الْحُبِّ يُعْمِي وَيُصِمُّ وَكَذَاكَ الْبُغْضُ أَدْهَى وأَطَمُّ[١]

التفسير: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي أُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بالغًا أقصى الغاية في الشدة والعسر[٢] ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ أي وأُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولةٍ ويسر، وتَسلُّها سلًّا رفيقًا قال ابن مسعود: إن ملكَ الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّفود - سيخ الحديد - الكثير الشُّعب من الصوف المبتلّ، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها كما ينشط العِقال من يد البعير[٣] قال ابن كثير: أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ رُوحه بسهولة وكأنما حَلَّتْه مِن نشَاط[٤] ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ أي الملائكة تدبّر شئون الكون بأمره تعالى، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من شئون الدنيا، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ، وقد دل عليه قوله ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي يوم ينفخ في الصُّور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور قال ابن عباس: الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية، أما الأولى فتُميت كلَّ شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى[٥].. ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يَلقَوْنه من الشدائد والأهوال فقال ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجلة مضطربة ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعادًا للبعث: أنرد بعد الموت فنيصر أحياء بعد فنانا ونرجع كما كنا أول مرة؟ قال القرطبي: إذا قيل لهم: إنكم تبعثون بعد والعرب تقول:

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٤.

(٢) (ش): تقدَّم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يجوز أن يُقْسِمَ إِلاَّ بِالْخَالِق.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٤. (ش): السَّفُّودُ: عُودٌ من حديد له شُعَب، أي أسنان، يُغْرَز فيها اللَّحم ليُشْوَى. وقد صح عن النبي ﷺ أنّ رُوحَ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنَ تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، وأنّ رُوحَ الْعَبْدِ الْكَافِرِ يَنْتَزِعُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ. (رواه أحمد، وصححه الألباني). أنشَط العُقْدة: حلهَا وَفك أنشوطتها، وهي عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها. وأنشط الدَّابَّة عَن عقالها: أطلقها مِنْهُ. والعِقال: الحبل الذي يُشَدُّ به البعير.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٩٥ ثم قال: وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون. (ش): وكأنما حَلَّتْه مِن نشَاط: أي: كأنما كان مربوطًا فحَلَّتْ رباطه.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٩٣.

رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء[١] ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي هل إذا صرنا عظامًا بالية متفتتة سَنُرَدُّ ونُبعَث من جديد؟ ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي إن كان البعث حقًّا، وبُعِثْنا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين لأننا من أهل النار، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإنما هي يحة واحدة، يُنفخ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا الخلائق جميعًا على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها. ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسليةً لرسول الله ﷺ وتحذيرًا لقومه أن يحل بهم ما حلَّ بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة، أي: هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم؟ ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهَّر المبارك المسمَّى ﴿طُوًى﴾ في أسفل جبل طور سيناء، قائلًا له ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار، الذي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟ أي هل لك رغبةٌ وميلٌ إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام؟ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاعته فتتقيه وتخشاه؟ قال الزمخشري: ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرْض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف، ويستنزله بالمداراة من عتوه كما في قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤][٢] ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف، أي: فذهب موسى إليه ودعاه وكلَّمه، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى، وهي قلب العصا حيةً تسعى قال القرطبي: أراه العلامة العظمى وهي المعجزة قال ابن عباس: هي العصا[٣] ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي فكذب فرعون نبيَّ الله موسى، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي ولّى مدبرًا هاربًا من الحية، يُسرع في مشيه من هول ما رأى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي فجمع السحرة والجنود والأتباع، ووقف خطيبًا في الناس ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي فقال لهم بصوت عال: أنا ربكم المعبود العظيم الذي لا ربَّ فوقي ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي فأهلكه الله عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأولى هي قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٤] [القصص: ٣٨] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه، وما حلَّ به من العذاب والنكال، لَعِظَةً واعتبارًا لمن يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ويخشى عقابه.. ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون، رجع إلى

(١) نفس المرجع السابق ١٩/ ١٩٤.
(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٦٩٥.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٢.
(٤) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة، قال ابن عباس: كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة، فأمهله الله ثم أخذه.

منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته، ومظاهر عظمته وجلاله فقال ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ. والمعنى هل أنتم يا معشر المشركين أشقُّ وأصعَبُ خلقًا أم خَلْق السماء العظيمة البديعة؟ فإن مَن رفَع السماء على عِظَمها، هيِّنٌ عليه خَلْقكم وإحياؤكم بعد مماتكم، فكيف تنكرون البعث؟ قال الرازي: نبههم على أمرٍ يُعلم بالمشاهدة، وذلك لأن خلق الإنسان على صِغره وضَعْفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك؟[1] كقوله تعالى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي رفعها عاليةً فوقكم محكمة البناء، بلا عمد ولا أوتاد، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستويةً لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فُطور[2] قال ابن كثير: أي جعلها عاليةَ البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء[3] ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمًا حالكًا، ونهارها مشرقًا مضيئًا قال ابن عباس: أظلم ليلها وأنار نهارها[4] ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسَطَها ومهَّدها لسكنى أهلها[5] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي فعل ذلك كله، فأنبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزرع والأشجار، كل ذلك منفعةً للعباد وتحقيقًا لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم، قال الرازي: أراد بمرعاها ما يأكله الناسُ والأنعام، بدليل قوله ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ وانظر كيف دلَّ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام والأنعام من العشب، والشجر، والحب، والثمر، والعصف، والحطب، واللباس والدواء، حتى الملح والنار، فالملح متولد من الماء، والنارُ من الأشجار[6].. ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلًا، أخبر

(١) «التفسير الكبير للرازي» ١٣/ ٤٣.
(٢) (ش): فُطُور: شُقوق.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير».
(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٥) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه: «كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، وليس معنى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ مجرد البسط، بل المراد أنه بسطها بسطًا مهيأ لنبات الأقوات، يدل عليه قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي..» اهـ. «التفسير الكبير» ٣١/ ٤٨.
(٦) «التفسير الكبير» ٣١/ ٤٩.

بعـد ذلك عن وقوعه فعـلًا فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي فإذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى، التي تعمُّ بأهوالها كل شـيء، وتعلو على سـائر الدواهي قال ابن عباس: هي القيامة سـميت بذلـك لأنها تَطُمّ على كل أمـرٍ هائل مُفظِـع[1] ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإنسـان ما عمله من خير أو شـر، ويراه مدوَّنًا في صحيفة أعماله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أُظهِرت جهنم للناظرين فرآها الناسُ عيانًا، باديةً لكل ذي بصر.. وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها، ذكر انقسـام الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء فقال ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحدَّ في الكفر والعصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة الباقية، وانهمك في شهوات الحياة المحرَّمة، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فـإنَّ جهنم المتأجِّجة[2] هي منزله ومأواه، لا منزل له سـواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي وأمَّـا من خـاف عظمة ربه وجلاله، وخـاف مقامه بين يـديْ ربه يوم الحسـاب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي وزجر نفسـه عن المعاصي والمحارم، وكَفَّها عن الشهوات التي تؤدي بها إلى المعاطب ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيـم، ليس لـه منزل غيرها[3].. ثـم ذكر تعالى موقـف المكذبين بالقيامة، المسـتهزئين بأخبار السـاعة فقال ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي يسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن القيامة متى وقوعُها وقيامُها؟ قال المفسـرون: كان المشركون يسمعون أنباء القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل «طامة، وصاخة، وقارعة» فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى يوجدها الله ويقيمهـا، ومتى تحـدُث وتقَع؟ فنزلت الآيـة[4] ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ليـس علمها إليك حتـى تذكرها لهـم، لأنها من الغيوب التي اسـتأثر الله بعلمها، فلماذا يسـألونك عنها ويُلحّون في السـؤال؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي مردُّهـا ومراجعهـا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهـو الذي يعلم وقتها على التعيين، لا يعلمه أحد سـواه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ما واجبك يا محمد إلا إنذار مـن يخاف القيامة، لا الإعلام بوقتها، وخصَّ الإنذار بمن يخشـى، لأنه هو الذي ينتفع بذلك

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٩٨.

(٢) (ش): تأجَّجتِ النَّارُ: اشتعلت، التهبت وتوقّدت.

(٣) هذه الآيات الكريمة هي «الميزان الدقيق» لمعرفة الإنسان نفسه، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟ وهل هو من السعداء أم من الأشقياء؟ فمن طغى وبغى، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم، ومن أطاع الله واتقاه، وسارع إلى مرضاة مولاه، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان.

(٤) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: إن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة -استهزاء منهم-؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «لباب النقول»، ونسبه لابن أبي حاتم. وعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: «لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾. (صحيح، رواه الحاكم وابن جرير الطبري في «تفسيره»).

الإنذار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، بمقدار عشيةٍ أو ضحاها[1]. قال ابن كثير: يستَقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم، أو ضحى يوم.. ختم تعالى السورة الكريمة، بما أقسم عليه في أولها من إثبات «الحشر، والبعث» فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة[2]، وليتناسق البدء مع الختام.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين الآخرة والأولى في قوله ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ لأن المراد كلمتيه الشنيعتين الأولى والأخيرة، والطباق كذلك بين ﴿عَشِيَّةً .. ضُحَىٰهَا﴾.

٢ - جناس الاشتقاق في قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

٣ - المقابلة بين قوله ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ وبين ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ الآيات.

٤ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؟ فإن المراد منه التشويق الى معرفة القصة.

٥ - الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةَ .. ٱلْجَحِيمِ﴾ وبين ﴿ٱلسَّمَآءُ .. ٱلْأَرْضُ﴾ الوارد في الآيات.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ شبَّه أكل الناس برعْي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النبات، ففيه استعارة لطيفة.

٨ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ضُحَىٰهَا، دَحَىٰهَآ، وَمَرْعَىٰهَا، أَرْسَىٰهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية وسمى السجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): العَشِيّ: الْوَقْت من بَعْدِ الظُّهْرِ إِلَى الْمغرب، أَو من صَلاَة الْمغرب إِلَى الْعَتَمَة، والعَتَمَة: ظُلْمة اللَّيل. والعَتَمَة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. الضُّحَى: الْوَقْت من طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ.

(٢) (ش): قول المؤلف: « فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة »، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه الدليل والبرهان وليست دليلًا ولا برهانًا، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.

سُورَةُ عَبَسَ ٨٠ ٤٢

مكية وآياتها ثنتان وأربعون

بين يدي السورة

* سورة عبس من السور المكية، وهي تتناول شئونًا تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة، والوحدانية في خلق الإنسان، والنبات، والطعام، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها، وشدة ذلك اليوم العصيب.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، ورسول الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام فعبس ﷺ وجهه وأعرض عنه، فنزلت القرآن بالعتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ الآيات.

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون، حيث يسر الله للإنسان سبل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ

وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ

اللغة: ﴿عَبَسَ﴾ كلح وجهه وقطَّب ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سَفَرَةٍ﴾ السفرة: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كَتَبَة ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعل له قبراً وأمر أن يُقْبر ﴿وَقَضْبًا﴾ القضبُ: كل ما يقطع من البقول فينبت أصلهُ مثل البرسيم «الفصة» والباقِلَاء، والكُرَّاث وغيرها[1] ﴿غُلْبًا﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان جمع غلباء ﴿وَأَبًّا﴾ الأَبُّ: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ الصيحة التي تُصِمُّ الآذان لشدتها ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة.

سَبَبُ النّزول: روي أن النبي ﷺ كان مشغولًا مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، فبينما رسول الله ﷺ مشتغل بمن عنده من وجوه قريش، جاء إليه «عبد الله بن أُم مكتوم» وهو أعمى، فقال: يا رسول الله، علمني مما علَّمك الله، وكرَّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين؛ فكره رسول الله ﷺ قطعة لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: «يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الآيات[2].

التفسير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي كلَّح وجهه وقطَّبه[3] وأعرض عنه كارهًا، لأنْ جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي: إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تلطفًا به ﷺ وإجلالًا له، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة[4] واسم الأعمى «عبد الله بن أُم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له: «مرحبًا بمن

---

(١) (ش): باقِلَاءٌ: نبات عُشبيّ حَوْليّ تؤكل قُرونُه مطبوخة وكذلك بذورُه، مثل الفول واللوبيا. وقيل: القَضْبُ هو عَلَف الدَّوَابِّ.

(٢) حاشية الصاوي ٤/ ٢٩٢، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١٠. (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى فَقَالَتْ: أَتَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَرْشِدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا» فَيَقُولُ: «لَا» فَفِي هَذَا أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى» (صحيح، رواه الترمذي، والحاكم، والطبري في «تفسيره»).

(أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا): أي هل ترى في كلامي خطأً؟ أليس كلامي صوابًا؟، أليس ما أقوله حقًّا؟

(٣) (ش): أي ضَمَّ جِلد مَا بَين عَيْنَيْهِ وَجِلد جَبهته، وَظهَرَ أَثَرُ التَّغَيُّرِ عَلَى وجهه.

(٤) (ش): فلم يقل: عبسْتَ وتولَّيْتَ، ولما انتهى العتاب وجه إليه الخطاب بصيغة المخاطب، قال- تعالى-: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]... إلى آخر الآيات.

عاتبني فيه ربي، ويبسط له رداءه»[١] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعلَّ هذا الأعمى الذي عبستَ في وجهه، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي أويتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي أما من استغنى عن اللهِ وعن الإيمان، بما له من الثروة والمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي فأنت تتعرَّض له وتصغي لكلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان، ولست بمطالب بهدايته، إنما عليك البلاغ قال الألوسي: وفيه مزيد تنفيرٍ له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المُدْبِر مُخِلٌّ بالمرُوءة كما قال القائل:

وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... يَوْمًا لَقُلْتُ لَهَا عَنْ صُحْبَتِي بِينِي[٢]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي وأمَّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم للهِ ويحرص على طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه، وتتلهى بالانصراف عنه إلى رؤساء الكفر والضلال ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي لا تفعل بعدم اليوم مثل ذلك، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء[٣]، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه ويقول: مرحبًا بما عاتبني فيه ربي[٤]. ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» / ٢٩١. (ش): عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٠. (ش): أي لَوْ كَرَهَتْنِي يَدِى ما صَحِبَتْنِي. بِينِى: أي انفصلي. بان الشَّخصُ عنه/ بان الشَّخصُ منه: بَعُد وانفصل، انقطع عنه وفارقه.

يُنسب لذي الإصبع العدواني قوله:

لَا أَبْتَغِي وَصْلًا لِمَنْ لَا يَبْتَغِي صِلَتِي ... وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَبْتَغِي لِينِي
وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... لَقُلْتُ لِلْكَفِّ بِينِي إِذْ كَرِهْتِينِي

(٣) (ش): ما رُوِيَ من أنه ﷺ كان بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٤) عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، =

القرآن فقال ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنسٍ ونقص ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين معظمين عند الله، أتقياء صُلَحاء ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ثم ذَكَر تعالى قُبْحَ جريمة الكافر، وإفراطِه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي لُعِن الكافر وطُرِد من رحمة الله، ما أشدَّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأيَادِيه عنده![1] قال الألوسي: والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان[2] ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ ثم وضَّح ذلك فقال ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أي من ماءٍ مهين حقير بدأ خلقه، فقدَّره في بطن أمه أطوارًا من نطفة ثم من علقة إلى أن تمَّ خَلْقُه قال ابن كثير: قدَّر رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد[3] ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم سهَّل له طريق الخروج من بطن أمه[4] قال الحسن البصري: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين؟[5] يعني الذَكَر والفَرْج ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أماته وجعل له قبرًا يُوارَى فيه إكرامًا له، ولم يجعله مُلقًى للسباع والوحوش والطيور. قال الخازن: وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه، يُحْيِيه بعد موته للبعث والحساب والجزاء[6]، وإنما قال ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.. ولما ذكر خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه فقال ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار، إلى أمر حياته، كيف خلقه بقدرته، ويسره برحمته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته؟! ثم فصَّل ذلك فقال

= ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(١) (ش): أي مع كثرة إحسانه إليه ونعمه عنده.

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٠٠.

(٤) (ش): وقيل: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم بَيَّنَ له طريق الخير والشر.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١٦.

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٠.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالًا عجيبًا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقًّا بديعًا ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواع الحبوب والنباتات: حبًّا يقتات الناس به ويدخرونه، وعنبًا شهيًا لذيذًا، وسائر البقول مما يؤكل رَطِبًا ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت والرطَب والتَمْر[1] ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار، كما أخرجنا ما تراعاه البهائم قال القرطبي: الأبُّ ما تأكله البهائم من العشب[2] ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشًا لكم أيها الناس ولأنعامكم قال ابن كثير: وفي هذه الآيات امتنانٌ على العباد وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا باليةً وأوصالًا متفرقة[3] ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه، من أخيه، وأمه، وأبيه، وزوجته، وأولاده لاشتغاله بنفسه قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم على مراتبهم في الحُنُوّ والشفقة[4]، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشدُّ شفقةً على بنيه من كل من تقدم ذكره[5] ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي لكل إنسان منهم في ذلك اليوم العصيب، شأنٌ يشغله عن شأن غيره، فإنه لا يفكر في سِوَى نفسه، حتى إن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهم يومئذٍ «نَفْسِي نَفْسِي»[6].. ولما بيَّن تعالى حال القيامة وأهوالها، بيَّن بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء، فقال في وصف السعداء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي فَرِحَةٌ مسرورة بما رأَتْه من كرامة الله ورضوانه، ومستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسواد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه، هم الجامعون بين الكفر والفجور، قال الصاوي: جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم

---

(١) (ش): التَمْر: ما يَبِسَ من البلح (ثمر النخل)، أي جَفّ بعد رُطوبة، وهو كالزّبيب من العنب. الرطَب: ما نضج من البلح قبل أن يصير تَمْرًا. أي ما صار ليِّنًا حُلوًا قبل أن يصير تَمْرًا.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٢٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٠١.

(٤) (ش): حَنَا على فلانٍ: عطف وأشفق عليه.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٠.

(٦) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم.

الغَبرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور[١].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

. ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؟ فالتفت تنبيهًا للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى.

٢ - جناس الاشتقاق بين ﴿يَذَّكَّرُ.. ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

٣ - الكناية الرائقة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ كنَّى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.

٤ - أسلوب التعجب ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ تعجبٌ من إفراط كفره، مع كثرة إحسان الله إليه.

٥ - الطباق بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ وبين ﴿تَلَهَّىٰ﴾ لأن المراد بهما تتعرض وتنشغل.

٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ثم فصَّل ذلك وبيَّنه بقوله ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

٧ - المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قابلها بقوله ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ ومثل ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ يَذَّكَّرُ.﴾ إلخ.

لطيفَة: اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ هذين البيتين:

يَتَمَنَّى الْمَرْءُ فِي الصَّيْفِ الشِّتَا ... فَإِذَا جَاءَ الشِّتَا أَنْكَرَهْ
فَهُوَ لاَ يَرْضَى بِحَالٍ وَاحِدٍ ... قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهْ[٢]

«انتهى تفسير سورة عبس»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٩٤.

(٢) (ش): الشِّتَا: الشِّتَاء.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

٨١ ٢٩ذ

مكية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما: «حقيقة القيامة» وحقيقة «الوحي والرسالة» وكلاهما من لوازم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بيان القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل، يشمل الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما يشمل البشر، ويهز الكون هزًّا عنيفًا طويلًا، ينتثر فيه كل ما في الوجود، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ الآيات.

* ثم تناولت حقيقة الوحي، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور العلم والإيمان ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ
﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ
﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ

اللغة: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ تناثرت ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عُشَراء وهي الناقة التي مرَّ على حملها عشرة أشهر ﴿كُشِطَتْ﴾ نُزِعَت وقُلِعَت يقال: كَشَطْت جلدَ الشاة أي نزَعْته وسلَخْته عنها ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ الكواكب المضيئة التي تخنس نهارًا وتختفي عن البصر جمع خانس ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ النجوم التي

تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الظِّباء ﴿عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه. قال الخليل: عسعس الليلُ: إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا (١)

التفسير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذه الآيات بيانٌ لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب. والمعنى: إذا الشمس لُفَّتْ ومُحِيَ ضَوْءُها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي وإذا الجبال حُرِّكت من أماكنها، وسُيِّرت في الهواء حتى صارت كالهَبَاء(٢) كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي وإذا النوق(٣) الحوامل تُرِكت هَمَلاً بلا راعٍ ولا طالب، وخصَّ النوق بالذكر لأنها كرائم أموال العرب(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوش جُمِعَت من أوْكارها وأجحارها ذاهلةً من شدة الفزع(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار تأججت نارًا، وصارت نيرانًا تضطرم وتلتهب ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا النفوس قُرِنَت بأشباهها، فقُرِن الفاجرُ مع الفاجر، والصالحُ مع الصالح، قال الطبري: يُقرَن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السُّوء في النار(٦)

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سئلت توبيخًا لقاتلها: ما ذنبها حتى قتلت؟ قال في التسهيل: الموءودة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حيَّةً من كراهته لها أو غَيْرتِه عليها، فتُسْأل يوم القيامة ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؟ على وجه التوبيخ لقاتلها(٧) ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي وإذا صحف الأعمال نُشِرت وبُسِطَت عند الحساب ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي وإذا السماء أُزيلَت ونُزِعَت من مكانها كما يُنزَع الجلد عن الشاة ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي وإذا نار جهنم أُوقِدَت وأُضْرِمَت لأعداء الله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي وإذا الجنة أُدْنِيَت

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٠.

(٢) (ش): الهَبَاء: ما يُرى في ضوء الشمس من الغبار الخفيف.

(٣) (ش): النوق: جمع ناقَة: وهي الأنثى من الإِبِل، أنثَى الجمل.

(٤) (ش): كرائمُ الأموال: نفائسها وخيارها.

(٥) (ش): أَوْكار: جمع وَكْر: عُشُّ الطائر الذي يبيض فيه ويُفرِّخ، سواء أكان ذلك في جبل أم شجر أم غيرهما. أجْحَار: جمع جُحْر: حُفْرة تأوي إليها وصغار الحيوانات والهوامّ. والهوامّ جمع هامَّة: ما كان له سمٌّ قاتل، كالحيَّة.

(٦) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب، وقيل المراد: قَرْنُ الأجساد بالأرواح، والأول أرجح والله أعلم.
(ش): هكذا في «تفسير الطبري»، ولعل الصواب: يُقرَن الرجلُ الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، والرجلُ السوء مع الرجل السُّوء في النار، أو: يُقرَن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء والرجل السُّوء في النار.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٨١.

وقُرِّبَت من المتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي علمت كل نفسٍ ما أحضرتْ من خيرٍ أو شر، وهذه الجملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هي جواب ما تقدم من أول السورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى هنا. والمعنى إذا حدثت تلك الأمور العجيبة الغريبة، علمت حينئذٍ كل نفسٍ ما قدَّمَتْه من صالح أو طالح.. ثم أقسم تعالى على صدق القرآن، وصحة رسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل[1] ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها، كما تستتر الظباء في كناسها -مغاراتها- قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتنكس وقت غروبها أي تستتر، كما تنكس الظباء في المغار وهو الكناس[2] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطَّى الكون[3] ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلَّج، واتَّسع ضياؤه حتى صار نهارًا واضحًا ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المُقْسَم عليه، أي: إن هذا القرآن الكريم، لَكلامُ الله المنزَّل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل كقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] قال المفسرون: أراد بالرسول «جبريل» وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى، ومما يدل على أن المراد به جبريل قوله بعده ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي شديد القوة، صاحب مكانة رفيعة، ومنزلة سامية عند الله جلّ وعلا ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي مطاع هناك في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة الأبرار، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش، وعرفتم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم قال الخازن: أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين، وأن محمدًا ﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة، فنفى تعالى عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه[4] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي وأقسمُ لقد رأى محمد ﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البَيِّن من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس قال في البحر: وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء، حين رأى جبريل على كرسي بين السماء والأرض، في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب[5] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن، كذا في «الطبري» ٣٠/ ٤٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٣٥.

(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضيائه، وهو اختيار ابن كثير.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٥.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٤. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ =

يقصِّر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانةٍ وصدق ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيْ فأيَّ طريقٍ تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر، مع وضوح آياته وسطوع براهنيه؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم: هذا الطريق الواضح فأين تذهب؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق، ويستقيم على شريعة الله، ويسلك طريق الأبرار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولُطْفه، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾.

٢ -الاستعارة التصريحية ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ شبَّه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويرًا حيث عبر عنه بتنفس الصبح[1].

٣ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

٤ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ.. ٱلْجَنَّةُ﴾.

٥ - الجناس غير التام بين ﴿أَمِينٍ.. مَكِينٍ﴾.

٦ - توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كُوِّرَتْ، سُيِّرَتْ، سُجِّرَتْ، سُعِّرَتْ﴾ ومثل ﴿بِٱلْخُنَّسِ، ٱلْكُنَّسِ، عَسْعَسَ، تَنَفَّسَ﴾ الخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»

❁ ❁ ❁ ❁

= جَنَاحٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: « إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ. (رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح). وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ وَهِيَ الأَوْثَانُ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجُئِثْتُ: ففزعتُ.

(١) (ش): النَّسيم: ريح خفيفة لا تُحرِّك شجرًا ولا تُعَفِّي أثرًا. الهواء العليل: نسيمٌ رقيق ليِّنُ الهبوبِ، مُنعشٌ لطيف. دمَسَ الظَّلامُ: اشتدَّ سوادُه.

سُورَةُ الانفِطَارِ ٨٢ ١٩

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام[1]، ثم بيان حال الأبرار، وحال الفجار، يوم البعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، من انفطار السماء وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؟!

* ثم ذكر علة هذا الجحود والإنكار، ووضحت أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين: أبرار، وفجار، وبينت مآل كل من الفريقين ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ

(١) (ش): أحداثٌ جِسَام: أحداثٌ عظيمة.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ

اللغـة: ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ انشـقت، والفَطْـرُ: الشـقُّ ومنـه فطر نـابُ البعير ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ تسـاقطت وتهـاوت ﴿بُعْثِرَتْ﴾ قُلبت يقـال: بعثرت المتاع قَلَبْته ظهرًا لبطـن ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿سَوَّىٰكَ﴾ جعل أعضاءك سليمة سويّة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويذوقون لهبها وحرَّها.

التفسـير: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقـان: ٢٥] ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تسـاقطت وتناثرت، وزالت عن بروجها وأماكنهـا ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار فُتِـح بعضُها إلـى بعض، فاختلط عذْبُها بمالحها، وأصبحـت بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي وإذا القبـور قُلِبَـت، ونُبِـشَ ما فيها مـن الموتى[1]، وصـار ما في بطنها ظاهـرًا على وجهها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذٍ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبري: ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من شيء سَنَّه فعُمِل به بعده[2] ثم بعد ذِكْر أحوال الآخرة وأهوالها، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أيْ أيُّ شـيءٍ خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره، مع إحسـانه إليـك وعطفه عليك؟[3] وهذا توبيـخ وعتاب كأنه قال: كيف قابلتَ إحسـان ربك بالعصيان، ورأفتـه بك بالتمرد والطغيان ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]؟ ثم عدَّد نعمه عليه فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم، فجعلك سـويًّا سـالم الأعضاء، تسمع وتعقل وتبصر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصبًا في أحسن الهيئات والأشكال ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي رَكَّبَـك في أي صورة شـاءها واختارها لك من الصور الحسـنة العجيبة ولم يجعل في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].. ثـم وبَّخ المشـركين على تكذيبهم بيوم الدين فقـال ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة، ولا تغتروا بحلم الله، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي والحـالُ أن عليكم ملائكة حفظة يضبطـون أعمالكم ويراقبون تصرفاتكـم قال القرطبي: أي

(١) (ش): أي قُلِبَ تُرابُهَا، وَخَرَجَ الأَمْوَاتُ مِنْهَا.
(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٥٤.
(٣) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا: يُلَقِّنه أن يقول: غَرَّنِي كرمُك، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر: «غره حُمقُه وجَهلُه».

عليكم رقباء من الملائكة[1] ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أي كرامًا على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر، ويسجلونه في صحائف أعمالكم، لتُجازَوْا به يوم القيامة.. ثم بَيَّن تعالى انقسام الخلق يوم القيامة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كلٍّ من الفريقين فقال ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا، لَفِي بهجة وسرور لا يُوصَف، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون في الجنة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي وإن الكفرة الفجار، الذين عصوا ربهم في الدنيا، لفي نار محرقةٍ، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي وليسوا بغائبين عن جهنم، بعيدين عنها لا يرونها، بل هي أمامهم يَصْلَونَ ويذوقون سعيرها ولا يخرجون منها أبدًا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيمٌ له وتهويل أي ما أعلمك ما يوم الدين؟ وأيُّ شيءٍ هو في شدته وهوله؟ ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ كرر ذكره تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لأمره كقوله ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١٣]؟ كأنه يقول: إن يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدري أحدٌ مقدار هوله وعظمته، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي هو ذلك اليوم الرهيب الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا بشيء من الأشياء، ولا أن يدفع عنه ضرًّا ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَتْ﴾ و ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم وفيه أيضًا من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع.

٣ - الاستعارة المكنية ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ شبَّه الكواكب بجواهر قُطِع سِلْكُها[2] فتناثرت متفرقة، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانتشار على طريق الاستعارة المكنية.

٤ - الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟

٥ - التنكير في كل من لفظة ﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ للتعظيم والتهويل.

٦ - الإطناب بإعادة الجملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ لتعظيم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٤٥.

(٢) (ش): سِلْك: خيط يُنظم فيه الخرز ونحوه أو يخاط به.

هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال.

٧ - السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ ومثل ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ ومثل ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾.

لطيفَة: روي أن الخليفة «سليمان بن عبد الملك» قال لأبي حازم المزني: ليت شعري أين مصيرنا يوم القيامة؟ وما لنا عند الله؟ فقال له: اعرضْ عملك على كتاب الله تجد ما لك عند الله (فقال: وأين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ قال سليمان: فإين إذًا هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ ٨٣ ٣٦

مكية وآياتها ست وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، تعالج أمور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء.

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حسابًا للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار، وصورت جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات.

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار، وما لهم من النعيم الخالد الدائم، في دار العز والكرامة، وذلك في مقابلة ما أعده الله للأشقياء الأشرار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال، من عباد الله الأخيار، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا
يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ
﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ
إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ
إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ
ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ

اللغة: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مُطفّف وهو الذي يُنقِص في الكيل والوزن، والتطفيف: النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير، لأن المطفّف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿رَانَ﴾ غطَّى وغشَّى كالصدأ يغشى السيف، وأصله الغلبة يقال: رانَت الخمرُ على عقل شاربها أي غلبَتْه قال الشاعر:

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرٍ[1]

﴿رَّحِيقٍ﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر وقال الأخفش: هو الشراب الذي لا غش فيه قال الحسن:

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ[2]

﴿فَكِهِينَ﴾ معجبين متلذذين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ﴿ثُوِّبَ﴾ جُوزِيَ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عَينٌ عالية شرابها أشرف شراب، وأصل التسنيم الارتفاع ومنه سَنَام البعير[3].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسَنوا الكيل بعد ذلك»[4].

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بيَّن أوصافهم القبيحة بقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملًا لأنفسهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، يُنقِصون الكيل والوزن قال المفسرون: نزلت في رجل يُعرف بـ «أبي جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر[5]، وهو وعيدٌ لكل من طفَّف الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وفي الحديث «ولا

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٤. (ش): البيت يُنسَب لحسان بن ثابت، يمدح الغساسنة في الجاهلية. بَرَدَى: أي مَاءَ بَرَدَى، نهر بدمشق. يُصَفَّقُ: يُمزَج. سَلْسَل: عذْبٌ صافٍ سَلِس سهل.

(٣) (ش): سَنَام البعير: سَنَام الجمل: كتلة كبيرة من الشَّحْم مُحدَّبة على ظهره.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦١٣. (ش): حسن، رواه الحاكم، وابن ماجه، وابن حبان، وابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٥) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأُخذوا بالسنين»[١] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي ألاَ يَعْلم ويستَيْقين أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عصيب، شديد الهول، كثير الفزع؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاةً عراةً، خاشعين خاضعين لرب العالمين[٢] قال في البحر: وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصف اليوم بالعِظَم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفهُ برب العالمين، دليلٌ على عِظَم هذا الذنب وهو التطفيف[٣]، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ[٤].. ثم ذكر تعالى مآل الفجار، ومآل الأبرار فقال ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي ليرتدِعْ هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار، لفي مكان ضيّق في أسفل سافلين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما سجين؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي هو كتاب مكتوبٌ كالرَّقْم في الثوب[٥]، لا يُنسَى ولا يُمحَى، أُثبِتَتْ فيه أعمالهم الشريرة قال ابن كثير: ﴿سِجِّينٍ﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين، وهي تجمع الضيق والسفول، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم، أي: مكتوبٌ مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد[٦] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء ألا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال، مُبالِغ في العصيان والطغيان، كثير الآثام، ثم وضّح من إجرامه فقال ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا تُلِيَتْ عليه آيات القرآن، الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعًا، وانظر الألوسي ٣٠/ ٧١. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» (حسن رواه ابن ماجه). (الْفَاحِشَةُ) أي الزنا. (الْأَوْجَاعُ) أي الأمراض. (السِّنِين) أي الفقر. (الْقَطْرَ) أي المطر. (بَأْسَهُمْ) أي حربهم.

(٢) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاس -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» (رواه البخاري). (غُرْلًا): غَيْر مَخْتُونِينَ.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٠.

(٤) أخرجه الشيخان ومالك. (ش): الرشح: العرق.

(٥) (ش): رقَم الثَّوبَ ونحوَه: طرّزه وخطّطه.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦١٤.

عنهـا: هذه حكايات وخرافات الأوائل، سـطروها وزخرفوها في كتبهم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليرتـدع هذا الفاجر عـن ذلك القول الباطل، فليس القرآن أسـاطير الأولين، بل غَطَّى على قلوبهم ما كسـبوا من الذنوب، فطمَسَ بصائرَهم فصاروا لا يعرفون الرشـد من الغي قال المفسـرون: الرَّان هو الذنب على الذنب حتى يَسْـوَدَّ القلب[1] ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي لِيرتـدِعْ هـؤلاء المكذبون عن غَيِّهم وضلالهم، فهـم في الآخرة محجوبون عن رؤيـة المولـى جل وعلا فلا يرَوْنه قال الشـافعي: وفي هذه الآية دليل علـى أن المؤمنين يرَوْنه عَـزَّ وَجَلَّ -وقال مالك: لما حجـب أعداءَه فلم يرَوْه، تجلَّى لأوليائـه حتى رَأَوْه[2]- ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن، لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ثـم تقول لهم خزنـة جهنم على وجه التقريع والتوبيخ: هذا العـذاب الـذي كنتم تكذبون بـه في الدنيـا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟.. وبعـد الحديث عن حال الفجار، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجـر، أي: ليـس الأمـر كما يزعمون من مسـاواة الفجار بالأبـرار، بل كتابه في سـجين، وكتـاب الأبـرار في عليين، وهو مكان عالٍ مشـرَّف في أعلى الجنة، قال في التسـهيل: ولفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشـتق من العلو لأنه سـبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنـه في مـكان عليٍّ رفيع فقد رُوِي أنـه تحت العـرش[3] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشـأنه أي وما أعلمك يـا محمد ما عليـون؟ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي كتابٌ الأبرار كتاب مُسَـطَّر، مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعلى درجات الجنة، يشـهده المقربون من الملائكة قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيكتب فيه ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون[4] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

---

(١) وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». رواه الترمذي. (ش): ورواه أحمد وحسنه الألباني. (نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ) أَيْ جُعِلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ أَيْ أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَةِ شَبَهُ الْوَسَخِ فِي الْمِرْآةِ وَالسَّيْفِ وَنَحْوِهِمَا. (نَزَعَ) أَيْ كفَّ نَفْسَهُ وانتهى عَنِ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي. (صُقِلَ قَلْبُهُ) أي نُظِّفَ، وَصُفِّيَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ. (وَإِنْ عَادَ) أَيْ الْعَبْدُ فِي الذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ (زِيدَ فِيهَا) أَيْ فِي النُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ (حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ) أَيْ تَعْلُوَ النُّكَت قَلْبَهُ، أَيْ تُطْفِئَ نُورَ قَلْبِهِ فَتُعْمِيَ بَصِيرَتَهُ (وَهُوَ) أي الْأَثَرُ الْمُسْتَقْبَحُ الْمُسْتَعْلِي (الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ) أَيْ فِي كِتَابِهِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٥٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥. (ش): رواه الطبري من كلام قتادة في تفسير الآية.

(٤) ذكره القرطبي عن كعب ١٩/ ٢٦٠. (ش): هو كعب بن ماتع الحميرى، المعروف بكعب الأحبار، من كبار التابعين، كان من أهل اليمن، وكان على دين اليهود، فأسلم فى خلافة أبى بكر رضي الله عنه، وتوفِّي فى آخر خلافة عثمان رضي الله عنه. وعَنْ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ بُدَيْلٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ =

أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي هم على السُّرُر المُزَيَّنة بفاخِر الثياب والسُّتور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورَوْنَقه[1] ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي يُسقون من خمرٍ في الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تُكَدِّرْها الأيدي، قد خُتِم على تلك الأواني فلا يفُكّ خَتْمها إلا الأبرار ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون قال الطبري: التنافسُ مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم. والمعنى: فليستبقوا في طلب هذا النعيم، ولتحرص عليه نفوسهم[2] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسنيم» ولهذا قال بعده ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة قال في التسهيل: تسنيم أسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على إن درجة المقربين فوق درجة الأبرار[3] ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار، أعقبه بذكر مآل الفجار، تسليةً للمؤمنين وتقويةً لقلوبهم فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي: إن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجرام وارتكاب الآثام، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم قال في التسهيل: نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنون، فضحكوا

= الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا». قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ. قَالَ: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ». فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَقُولُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ». قَالَ: « وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ - قَالَ حَمَّادٌ: وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ». قَالَ: فَيُقَالُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا. (رواه مسلم). قال النووي: «قَوْلُهُ فِي رُوحِ الْمُؤْمِنِ (ثُمَّ يَقُولُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ ثُمَّ قَالَ فِي رُوحِ الْكَافِرِ فَيُقَالُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ) قَالَ الْقَاضِي الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَالْمُرَادُ بِالثَّانِي انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْكَافِرِ إِلَى سِجِّينٍ فَهِيَ مُنْتَهَى الْأَجَلِ وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ إِلَى انْقِضَاءِ أَجَلِ الدُّنْيَا. قَوْلُهُ (فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ) الرَّيْطَةُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ وَهُوَ ثَوْبٌ رَقِيقٌ وَقِيلَ هِيَ الْمُلَاءَةُ وَكَانَ سَبَبُ رَدِّهَا عَلَى الْأَنْفِ بِسَبَبِ مَا ذَكَرَ مِنْ نَتْنِ رِيحِ رُوحِ الْكَافِرِ» [شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٠٥)].

(١) (ش): رَوْنَق: حُسْن وبهاء وإشراق.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٦٨.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥.

منهم واستخفوا بهم[١] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنين بالكفار، غمز بعضهم بعضًا بأعينهم سخرية واستهزاءً بهم قال المفسرون: كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقارًا لهم وازدراءً يقولون: جاءكم ملوك الدنيا، يسخرون منهم لإيمانهم واستمساكهم بالدين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم، رجعوا متلذيين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قال في البحر: أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافًا بأهل الإيمان[٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد، وتَرْكهم شهوات الحياة قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وما أُرسل الكفار حافظين على المؤمنين، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول: أنا ما أرسلْتُهم رُقَباء[٣]، ولا وَكَّلْتُهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم؟ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، جزاءً وفاقًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي والمؤمنون على أسرَّة الدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم قال القرطبي: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم، فيضحك منهم المؤمنون[٤] ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء؟ نعم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير للتهويل والتفخيم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾.

٣ - المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ إلخ. ٤ - التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾؟

٥ - جناس الاشتقاق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٦ - الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٦. (ش): لم أجِدْه إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٣.

(٣) (ش): رُقَبَاءُ: جمع رقيب.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨.

٧ - التشبيه البليغ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي كالمسك في الطيب والبهجة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٨ - توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات مثل ﴿يَضۡحَكُونَ، يَنظُرُونَ، يَكۡسِبُونَ، يَفۡعَلُونَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»

❁ ❁ ❁ ❁

٨٤ سُورَةُ الانشِقَاقِ ٢٥

مكية وآياتها خمس وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الانشقاق مكية، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة، وصورت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكد ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه؛ ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح[1]، ومن خير أو شر، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله، مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ

---

(١) (ش): طَالِح: شرِّير، فاسد، خلاف صالح.

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ

اللغَة: ﴿كَدْحًا﴾ الكدح: الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل قال الشاعر:

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ ... وَبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ [1]

﴿يَحُورَ﴾ يرجع يقال: حار يحور إذا رجع؛ ومنه حديث «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ» أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة[2] ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس ﴿وَسَقَ﴾ جمع وضم ولف ﴿ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع.

التفسِير: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ هذه الآيات بيان لأهوال القيامة، وتصويرٌ لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأهوال يفزع لها الخيال. والمعنى: إذا تشققت السماء وتصدَّعت مُؤْذِنَةً بخراب الكون[3] قال الألوسي: تنشق لهول يوم القيامة[4] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع، وأن تنشق من أهوال القيامة ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي رمَتْ ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يُؤْذِنُ بعظم الهول[5] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يحيط به الخيال.. ثم أخبر تعالى عن كدِّ الإنسان وتعبه في هذه الحياة، وأنه يلقى جزاءه عند الله فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الخطاب عام لكل إنسان، أي: أنت يا ابن آدم جاهدٌ ومُجِدٌّ بأعمالك التي عاقِبَتُها الموت، والزمانُ يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطًا من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرعٌ إلى الموت، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك، إن كان خيرًا فخيرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ قال في البحر: كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٤. (ش): أَنْصَبُ: أتعَب.

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْرِ: النقصان. الْكَوْرِ: الزيادة. الوَعْثَاءِ: الشدة والمشقة.

(٣) (ش): أي مُعْلِمَةً بقُرب خراب الكون. يقال: آذن بالأمر: نادَى وأعلَمَ به. آذَنَت الشَّمسُ بالغروب: أوشكت أن تغرُب.

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٧٨.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨. (ش): يُؤْذِنُ: يُعْلِم، يُخبر، يدل على.

طول حياتك إلى لقاء ربك، فملاقٍ جزاء كدحك من ثوابٍ وعقاب[١].. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهذه علامة السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلًا هينًا، يُجازى على حسناته، ويُتجاوز عن سيئاته، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح[٢] ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجًا مسرورًا بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي وأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنى الهلاك والموت ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي ويدخل نارًا مستعرة، يقاسي عذابها وحرَّها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسرورًا مع أهله، غافلًا لاهيًا، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور بالدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل[٣] ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء، فلذلك كفر وفجر ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها، فإنه تعالى مُطَّلِع على العباد، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ ﴿فَلَآ﴾ لتأكيد القسم أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وبالليل وما جمع وضمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والأنعام، فكل يأوي إلى مكانه وسربه، ولهذا امتن تعالى على العباد فقال ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فإذا جاء النهار انتشروا،

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٦.

(٢) المراد بالحساب اليسير في الآية هو «العرض» لما روى أن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فَقَالَ ﷺ « إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ « فهذا» هو المراد من الحساب اليسير. (ش): حديث «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ» رواه البخاري ومسلم. (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ): نُوقِشَ: اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. (عُذِّبَ): أي إنه مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ) أي تُعرَض الأعمال على الشخص حتى يُقِرّ؛ فإذا أقرَّ بها قال الله تعالى له: « سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». فمن يشأ الله أن يعفوَ عنه يحاسبه الحسابَ اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقَش الحساب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٧١.

وإذا جاء الليل أوَى كلُّ شيء إلى مأواه ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي وأقسمُ بالقمر إذا تكامل ضوؤه ونوره، وصار بدرًا ساطعًا مضيئًا ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقُنَّ يا مشعر الناس أهوالًا وشدائد في الآخرة عصيبة قال الألوسي: يعني لتركبن أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها[١] وقال الطبري: المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالًا[٢] ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهام يقصد به التوبيخ، أي: فيما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يصدّقون بالبعث بعد الموت، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن؟ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب قال ابن عباس: ﴿يُوعُونَ﴾ أي يُضْمِرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين[٣] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم قال في التسهيل: ووَضْع البشارة في موضع الإنذار تهكُّمٌ بالكفار[٤] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي لكن الذين صدَّقوا الله ورسوله[٥]، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال[٦] ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثوابٌ في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع، بل هو دائم مستمر.

ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار، بعد أن ذكر مآل الفجار، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقاة كل عامل لجزائه في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.

٣ - الكناية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ كنَّى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان.

---

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ٨٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٠/ ٨٠.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٨. (ش): يُضْمِرون: يُخْفون.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٨.

(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصرٌ ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطْفُه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

٤ - الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿ٱتَّسَقَ﴾.

٥ - الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.

٦ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ ومثل ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ البُرُوجِ ٨٥ ٢٢

مكية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمـة من السـور المكية، وهـي تعرض لحقائـق العقيدة الإسـلامية، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان.

* ابتدأت السـورة الكريمة بالقسـم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشـهود وهو يوم القيامة، وبالرسـل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عند دينهم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ الآيات.

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشـنيعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

* وختمت السـورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار «فرعـون» وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ وهـو ختم رائع يناسـب موضوع السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ
ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ
بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ
فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ
وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ
وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ

اللغَة: ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ الشَّـقّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد ﴿قُتِلَ﴾ لُعن أشـدَّ اللعن ﴿نَقَمُواْ﴾ عابوا وكرهوا ﴿بَطْشَ﴾ البطش: الأخذ بشدة ﴿يُبْدِئُ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ العظيم الجليل المتعالي.

التفسِـير: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي وأُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها قال المفسرون: سميت هذه المنازل بروجًا لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها لأنها منازل للكواكب السـيارة ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ أي وأُقسـم باليوم الموعود وهـو يوم القيامة، الـذي وعد الله به الخلائق بقولـه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النسـاء: ٨٧] ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي وأُقسـم بمحمـد والأنبياء الذين يشـهدون على أممهم يوم القيامـة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشـر للحسـاب كقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النسـاء: ٤١] وقيـل: الشـاهد هذه الأمة، المشـهود سـائر الأمم ودليله ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][1] ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، والجملة دُعَائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، الذين شـقوا الأرض طولًا وجعلوها أخاديد، وأضرموا فيهـا النار ليحرقـوا بها المؤمنين قال القرطبي: الأخدودُ الشـقُّ العظيم المسـتطيل في الأرض كالخنـدق وجمعـه أخاديـد، ومعنـى ﴿قُتِلَ﴾ أي لعـن، قال ابن عبـاس: كل شـيءٍ في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهُـو لَعْـن[2].. ثم فصَّـل تعالى المراد مـن الأخدود فقـال ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي النار العظيمـة المتأججة، ذات الحطب[3] واللهـب، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لِإحراق المؤمنيـن قال أبو السـعود: وهذا وصف لهـا بغاية العظم، وارتفاع اللهـب، وكثرة ما فيها من الحطـب، والقصـدُ وصف النار بالشـدة والهول.. ثم بالـغ تعالى في وصـف المجرمين فقال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار؛ يتشـفون بإحراق المؤمنين فيها، ويشـهدون ذلك الفعل الشـنيع[4] والغرضُ تخويف كفار قريش، فقد

(١) اختلف المفسرون في تفسير: «الشاهد» و «المشهود» اختلافًا كبيرًا حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً، فقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة، وقيل: الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم.. إلخ. قال الصاوي: والأحسن أن يراد ما هو أعم؛ ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٨٤.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٢.

(٤) خلاصة القصة: «أن ملكًا ظالمًا كافرًا أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشُق في أفواه السكك، وأضرم فيها النيران، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه فليُلقوه فيها ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّاه اصبري فإنك على الحق» «انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم». (ش): (السِّكَك): الطُّرُق، وَأَفْوَاههَا: أَبْوَابهَا. (تَقَاعَسَتْ): تَوَقَّفَتْ وَلَزِمَتْ مَوْضِعهَا، وَكَرِهَتْ الدُّخُول فِي النَّار.

كانوا يعذبون من أسلم من قومهم، ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة «أصحاب الأخدود» وعيدًا للكفار، وتسليةً للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضَام مَن لاذَ بجنابه[1]، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، والغرضُ أن سبب البطش بهم، وتحريقهم بالنار، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام[2] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات، المستحق للمجد والثناء قال في البحر: وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به، وهي كونه تعالى ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالبًا قادرًا يُخشَى عقابُه ﴿حَمِيدًا﴾ أي مُنعِمًا يجب له الحمد على نِعَمه ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له، إنما ذكر ذلك تقريرًا لأن ما نقموه منهم هو الحقُّ الذي لا ينقمه إلا مُبْطِلٌ مُنْهَمِكٌ في الغَيِّ[3] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى مطلَّع على أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شئونهم، وفيه وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للمجرمين ثم شدَّد تعالى النكير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين.. ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل[4] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الذي لا سعادة ولا فوز بعده.. ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبابرة والظلمة، بالغ الغاية في الشدة قال أبو السعود: البطش الأخذ بعنف، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام[5] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي هو جل وعلا الخالق القادر، الذي يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾

---

(١) (ش): أي لا يُذَلُّ مَن لجأ إليه واستعانَ به.

(٢) (ش): الطغيان والإجرام من هؤلاء المشركين.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥١.

(٤) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٨٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٣.

أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين، اللطيف المحسن إلى أوليائه، المحبُّ لهم قال ابن عباس: يَوَدُّ أولياءَه كما يَوَدُّ أحدكم أخاه بالبشرَى والمحبة[1] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، وإنما أضاف العرش إلى الله وخصَّه بالذكر، لأن العرش أعظم المخلوقات، وأوسعُ من السمواتِ السبع، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ أي هو تعالى المجيدُ، العالي على جميع الخلائق، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه قال القرطبي: أي لا يمتنع عليه شيء يريده[2]. روي أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيبُ؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال قال لي: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[3] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾؟ استفهامٌ للتشويق أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة، الذين تجنَّدوا لحرب الرسل والأنبياء؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟ قال القرطبي: يُؤْنِسُه بذلك ويُسَلِّيه، ثم بَيَّن تعالى مَن هم فقال ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي هم فرعون وثمود، أولي البأس والشدة، فقد كانوا أشد بأسًا، وأقوى مراسًا من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حلَّ بأولئك الكفرة المكذبين، بل هم مستمرون في التكذيب فهم أشد منهم كفرًا وطغيانًا ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم، لا يفُوتُونه ولا يُعجِزونه، لأنهم في قبضته في كل حينٍ وزمان ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به، كتابٌ عظيم شريف، متناهٍ في الشرف والمكانة، قد سما على سائر الكتب السماوية، في إعجازه ونَظْمِه وصحة معانيه ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء، محفوظٍ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.

البَلاَغَة: تضمنت السورة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُبْدِئُ.. وَيُعِيدُ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿شَاهِدٌ.. وَمَشْهُودٍ﴾.

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كأنه يقول: ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر.

٤ - المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية قابله قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ..﴾ إلخ.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٩٤.

(٢) «القرطبي» ١٩/ ٢٩٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٢٥.

٥ - أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾؟

٦ - صيغة المبالغة مثل ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وأمثال ذلك.

٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٤﴾﴾ إلخ. وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وآياتها سبع عشرة

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمة من السـور المكية، وهـي تعالج بعض الأمـور المتعلقة بالعقيدة الإسـلامية، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

* ابتدأت السـورة الكريمة بالقسـم بالسـماء ذات الكواكب السـاطعة[1]، التـي تطلع ليلاً لتضيء للناس سُـبلهم، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كل إنسـان قد وُكل به من يحرسـه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾.

* ثم سـاقت الأدلـة والبراهين، على قدرة رب العالمين، على إعادة الإنسـان بعد فنائه ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾.

* ثم أخبرت عن كشـف الأسـرار، وهتك الأسـتار في الآخرة، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

* وختمت السـورة الكريمـة بالحديث عن القـرآن العظيم، معجزة محمـد ﷺ الخالدة، وحجتـه البالغـة إلى الناس أجمعين، وبينـت صدق هذا القرآن، وأوعـدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن﴾

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).
وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا

اللغـة: ﴿الطَّارِقُ﴾ مأخـوذ مـن الطرق بمعنـى الضرب بشـدة، ومنه المِطْرقـة، وكل ما جاء بليل يسـمى طارقًا ﴿دَافِقٍ﴾ مصبوب بقوة وشـدة يقال: دفق الماء دفقًا إذا انصبَّ بدفع وشـدة ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ عظام الصدر جمع تَرِيبَة مثل فَصِيلة وفصائل قال امرؤ القيس:

تَـرَائِبُـهَـا مَـصْـقُـولَـةٌ كَـالـسَّـجَـنْـجَـلِ (١)

﴿الرَّجْعِ﴾ المطـر سـمي به لرجوعـه إلـى الأرض مـرارًا ﴿الصَّدْعِ﴾ النبات الذي تنشـق عنه الأرض ﴿رُوَيْدًا﴾ قليلًا أو قريبًا.

التفسـير: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ أي أقسـم بالسـماء وبالكواكب النيرة، التي تظهـر ليلًا وتختفي نهارًا قال المفسـرون: سُمي النجم طارقًا لأنه إنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وكلُّ ما يجيء ليلًا فهو طارق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ اسـتفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد مـا حقيقة هذا النجم؟ ثم فسـره بقولـه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي النجم المضيء الـذي يثقب الظلام بضيائـه قال الصـاوي: قد كثر منه تعالـى في كتابه المجيد ذكرُ الشـمس والقمر والنجوم، لأن أحوالها في أشـكالها وسـيرها ومطالعها، ومغاربها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات، لأن الصّنعـة تـدل على الصانـع(٢) ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسـم أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليهـا حافظ مـن الملائكة، يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسـب من خيرٍ وشـر كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطـار: ١٠-١١] قـال ابن كثير: أي كلُّ نفسٍ عليها من الله حافظ يحرسـها من الآفات(٣).. ثم أمر تعالى بالنظر والتفكر في خلق الإنسـان، تنبيهًا على إمـكان البعث والحشـر فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾؟ أي فلينظر الإنسـان في أول نشـأته نظرة تكفرٍ واعتبار، من أي شـيءٍ خلقـه الله؟ ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي خلق من المنيّ المتدفق، الذي ينصـب بقوةٍ وشـدة، يتدفق مـن الرجل والمرأة فيتكـون منه الولد بـإذن الله ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أي يخـرج هـذا الماء من بيـن الصلب وعظم الصدر، من الرجـل والمرأة(٤) ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي إن الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً، قادر على إعادته بعد موته قال ابن كثير: نبه تعالى الإنسـان على ضعف أصله الذي خلق منه، وأرشـده إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي يوم تُمتَحَن القلوب

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ٩٧. (ش): السَّجَنْجَلُ: المرآةُ. و السَّجَنْجَلُ: الذهَبُ. والسَّجَنْجَلُ: سبائِكُ الفضَّةِ.
(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٠٩.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٢٩.
(٤) الصلب: فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر، والترائب: عظام الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

وتُختبَر، ويُعرَف ما بها من العقائد والنِّيَّات، ويُميَّز بين ما طاب منها وما خَبُثَ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي فليس للإنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب، ولا ناصر ينصره ويجيره، قال في التسهيل: لما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان، أو بنصرة غيره له، أخبره الله تعالى أنه يعدمهما يوم القيامة[1]، فلا قوة له في نفسه، ولا أحد ينصره من الله. ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي أُقسم بالسماء ذات المطر، الذي يرجع على العباد حينًا بعد حين قال ابن عباس: الرَّجع المطرُ ولولاه لهلك الناس وهلكت مواشيهم[2] ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ أي وأُقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات والثمار[3].. أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء، والأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات، والسماء للخلق كالأب، والأرض لهم كالأم، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة، والخيرات العميمة، التي بها بقاء الإنسان والحيوان ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي إن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الحق والباطل، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإعجازه ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي ليس فيه شيءٌ من اللهو والباطل والعبث، بل هو جدٌّ كله، لأنه كلام أحكم الحاكمين، فجديرٌ بقارئه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته وإرشاداته ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي إن هؤلاء المشركين كفار مكة يعملون المكايد لإطفاء نور الله، وإبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإمهال ثم النَّكال[4]، حيث آخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال أبو السعود: أي أُقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون[5] ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم، وأمهلهم قليلًا فسوف ترى ما أصنع بهم، وهذا منتهى الوعيد والتهديد.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿ٱلسَّمَآءِ..وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وبين ﴿ٱلۡفَصۡلِ..بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَكِيدُونَ..كَيۡدٗا﴾.

٤ - الإطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٢.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٢٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٩٥.

(٤) (ش): النَّكال: العقاب.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٨/ ٤٣٨.

٥ - الكنايـة اللطيفـة ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ كنَّى بالصلب عـن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

٦ - السـجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسـلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ ومثل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ الأَعْلَى ٨٧ ١٩

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الأعلى من السور المكية، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية:

١- الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا، والدلائل على القدرة والوحدانية.

٢- الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ.

٣- الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيَّة، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جلّ وعلا، الذي خلق فأبدع، وصور فأحسن وأخرجا العشب، والنبات، رحمة بالعباد ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن الوحي والقرآن، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد، وتيسير حفظه عليه، بحيث لا ينساه أبدًا ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن، الذي سيفيد من نوره المؤمنون، ويتعظ بهديه المتقون، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ الآيات.

* وختمت السورة ببيان فوز من طهَّر نفسه من الذنوب والآثام، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ

اللغة: ﴿غُثَآءً﴾ الغُثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود مأخوذ من الْحُوَّةُ وهي السواد أو السُّمرة ﴿يَصْلَى﴾ يدخل ويقاسي حرّها يقال: أصليتُه نارًا وجعلته يذوق حرها.

التفسير: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي نزِّه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النقص، وعما يقوله الظالمون، مما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص والقبائح، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»[1]. ثم ذكر من أوصافه الجليلة، ومظاهر قدرته الباهرة، ودلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلق المخلوقات جميعها، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها، في أجمل الأشكال، وأحسن الهيئات قال في البحر: أي خلق كل شيء فسواه، بحيث لم يأت متفاوتًا، بل متناسبًا على إحكام وإتقان، للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم[2] ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدَّر في كل شيء خواصه ومزاياه بما تجلُّ عنه العقول والأفهام، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها، وهدى الأنعام إلى مراعيها، ولو تأملت ما في النباتات من الخواص، وما في المعادن من المزايا والمنافع، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، واستخدام المعادن في صنع المدافع والطائرات، لعلمتَ حكمةَ العلي القدير، الذي لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون: إنما حذف المفعول لإفادة العموم أي قدَّر لكل مخلوق وحيوان ما يصلحه، فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به[3] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي فصيَّره بعد الخضرة أسود باليًا، بعد أن كان ناضرًا زاهيًا، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشيمًا يابسًا، فإنه يكون طعامًا جيدًا لكثير من الحيوانات، فسبحان من أحكم كل شيء و﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] !! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحدانيته، ذكر فضله وإنعامه على رسوله فقال ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه.. وفي هذه الآية معجزة له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبدًا، من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ قال ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى ووعدٌ لرسوله ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها[4] ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السماوية، وهي شريعة الإسلام ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥٨.
(٣) «انظر روح المعاني» ٣٠/ ١٠٤، و«التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٣.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٠.

تنفع الموعظة والتذكرة كقوله ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] قال ابن كثير: ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْه «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» وقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[1]؟ ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أي ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة قال الحسن: النار الكبرى نارُ الآخرة، والصغرى نارُ الدنيا[2] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة، بل هو دائم في العذاب والشقاء[3] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي قد فاز من طهَّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله، فصلى خشوعًا وامتثالا لأمره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي والحال أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى، لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ من الفاني، فكيف يؤثر عاقلٌ ما يفنى على ما يبقى؟ وكيف يهتم بالغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود؟ قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه: أتدرون لم آثَرْنا الحياةَ الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: لأن الدنيا أُحضِرَت وعُجِّلَت لنا بطعامها، وشرابها، ونسائها، ولذَّاتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيِّبَتْ وزُوِيَت عنا[4]، فأحبَبْنا العاجلَ، وتركنا الآجلَ[5] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت فيه الشرائع، وسطرته الكتب السماوية، كما سطره هذا الكتاب المجيد.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿لَا يَمُوتُ .. وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وكذلك ﴿ٱلْجَهْرَ .. وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ و ﴿فَذَكِّرْ .. ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٣ - المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): كلام علي رضي الله عنه رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وكلام ابن مسعود رضي الله عنه رواه البخاري تعليقًا.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥٩.

(٣) قال الطبري: العرب إذا وصفَت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا: لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما يعرفون «الطبري» ٣/ ٥٩.

(٤) (ش): زُوِيَت: أُخْفِيَتْ.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٦.

٤ - حـذف المفعول ليفيـد العموم في قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ وفي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

٥ - السـجع غير المتكلـف وهو كثير في القرآن مثـل ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: صحف موسـى غير التوراة، وقد رود أنه أعطي عشـر صحف وكانت كلها عبرًا، قال أبو ذر: سـألت رسـول الله ﷺ عن صحف موسـى ما كانت؟ قال: «كانت عبرًا كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبهـا بأهلهـا كيف يطمئـن إليها، عجبت لمـن أيقن بالقَـدَر ثم ينْصَب، عجبـت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): رواه ابن حبان وضعفه الألباني. النصَب: التعَب.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ ٨٨ ٢٦

مكية وآياتها ست وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الغاشية مكية، وقد تناولت موضوعين أساسين وهما:

١ - القيامة وأحوالها وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء.

٢ - الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وقدرته الباهرة، في خلق الإبل العجيبة، والسماء البديعة، والجبال المرتفعة، والأرض الممتدة الواسعة، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه، وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعًا إلى الله سبحانه للحساب والجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ
مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا
رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ
﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾
لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم

اللغة: ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ من النصب وهو التعب ﴿ضَرِيعٍ﴾ شيء في النار كالشوك مرٌّ مُنْتِنٌ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ذات حُسْن وبهجة ونضارة ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وَسَائد ومرَافِق[1] يُتَّكأ عليها جمع نمرقة، قال زهير:

كُهُولًا وَشُبَّانًا حِسَانًا وُجُوهُهُمْ ... عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ[2]

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسُط فاخرة جمع زَرْبِيَّة وقال الفراء: هي الطنافس التي لها خمَلٌ رقيق[3]،

---

(١) (ش): الْمِرْفَقِ: مِخَدَّةٌ أَوْ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ مِمَّا يُتَكَأُ عَلَيْهِ.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ١١٥.

(٣) (ش): بُسُط: فُرُش تُبسَط للجلوس عليها. الطنفسة: الْبِسَاط. (الخَمَل) الخَمْلُ: هُدْبُ القطِيفَة وَنَحْوهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وتَفضُلُ لَهُ فُضولٌ.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرَّقة في المجالس ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم.

التفسير: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الاستفهام للتشويق الى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم لشأنها، أي: هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمُّهم بشدائدها وأهوالها، وهي القيامة؟ قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها، وتعمُّهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعةٌ مهينة ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي دائبة العمل فيما يُتعِبها ويُشقيها في النار قال المفسرون: هذه الآية في الكفار، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوَحل، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها كما قال تعالى ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر] وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، وانهماكهم في اللذات والشهوات ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل نارًا مسعَّرة شديدة الحر قال ابن عباس: قد حَمِيَت فهي تتلَظَّى على أعداء الله[1] ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي تُسقَى من عين متناهية الحرارة، وصل حَرُّها وغليانها درجة النهاية ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبتٌ ذو شوك تسميه قريش «الشِّبْرِق» وهو أخبث طعام وأبشعه وهو سُمٌّ قاتل قال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه وأخبثه[2].. ذكر تعالى هنا أن طعامهم الضريع ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وقال في الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] ولا تَنَافِيَ بينهما[3]، لأن العقاب ألوان، والمعذَّبون أنواع، فمنهم من يكون طعامه الزقوم، ومنهم من يكون طعامه الضريع، ومنهم من يكون طعامه الغسلين، وهكذا يتنوع العذاب ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أي لا يفيد القوة والسِّمَن[4] في البدن، ولا يدفع الجوع عن آكِلِه قال أبو السعود: أي ليس من شأنه الإِسْمَانُ والإِشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وقد روي أنه يُسلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يُسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم[5]

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٧.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٣٢.

(٣) (ش): التَنَافي: التَعَارُض.

(٤) (ش): سمِن/ سمُن الإنسانُ أو الحيوانُ: كثر لحمُه وشحمُه.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٩. (ش): رُوِيَ عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِنْ جُوعٍ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِى غُصَّةٍ؛ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِى الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ، فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلاَلِيبِ الْحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِى بُطُونِهِمْ (رواه الترمذي، وضعفه الألباني).

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].. ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار، أتْبَعَه بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجةٍ وحُسْن، وإشراق ونضارة كقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٣٤] ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكانًا وقدرًا، وهم في الغرفات آمنون ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أي لا تسمع في الجنة شتمًا، أو سَبًّا، أو فُحشًا قال ابن عباس: لا تسمع أذى ولا باطلًا [(١)] ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ أي فيها عيونٌ تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبدًا قال الزمخشري: التنوين في ﴿عَيۡنٞ﴾ للتكثير أي عيونٌ كثيرة تجري مياهها[(٢)] ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ أي في الجنة أَسِرَّة مرتفعة، مُكلَّلة بالزبَرجَد والياقوت، عليها الحور العين، فإذا أراد ولِيُّ الله أن يجلس على تلك السُّرُر العالية تواضَعَتْ له[(٣)] ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملؤها ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾ أي ووسائد - مِخَدَّات -[(٤)] قد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة[(٥)]. ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار، إلى الإبل - الجِمال - كيف خلقها الله خلقًا عجيبًا بديعًا يدل على قدرة خالقها؟ قال في التسهيل: في الآية حض على النظر في خلقتها، لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها، من الركوب والحمل عليها، وأَكْل لحومها، وشُرْب ألبانها وغير ذلك[(٦)] ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾

---

(١) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٠٤.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١١٥.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٣.

(٤) (ش): مِخَدَّة: وسادة يُوضع عليها الخدّ أو الرأس عند النَّوم.

(٥) (ش): الطنفسة: الْبِسَاط. البُسُط: فُرُش تُبسَط للجلوس عليها. (الخَمَل) الخَمْلُ: هُدْبُ القطِيفَة وَنَحْوهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وتَفضُلُ لَهُ فُضولٌ.

(٦) «التسهيل» ٤/ ١٩٦ إنما خص تعالى الإبل بالذكر، لأنها أفضل دواب العرب، وأكثرها نفعًا ولهذا تسمى «سفينة الصحراء» فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف، وهي تجلس لتضع عليها حمولتها عن قرب، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة، ثم صَبْرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعْيها بكل نبات في البرارِي، =

أي وإلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها، وأَعْلَى سَمْكَها بلا عمد ولا دعائم[١]؟ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نُصِبَت على الأرض نصبًا ثابتًا راسخًا لا يتزلزل؟ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسِطت ومُهدَت حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا، القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عِظَمِها[٢] والحكمةُ في تخصيص هذه الأشياء بالذِّكْر، أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيرًا في الأودية والبراري منفردين عن الناس، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكر، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى نظرًا عجيبًا، وإن نظر فوقَ لم يَرَ غير السماء، وإن نظر يمينًا وشمالًا لم يَرَ غير الجبال، وإن نظر تحتَ لم يَرَ غير الأرض، فلذلك ذكر هذه الأشياء قال ابن كثير: نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لا يستحق العبادة سواه[٣]. ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يَعتَبِر بذلك الكفار، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فعِظْهُم يا محمد وخَوِّفْهم، ولا يُهِمَّنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون، فإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لست بمُتَسَلِّطٍ عليهم ولا قاهرٍ لهم حتى تُجبرهم على الإيمان ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنم الدائم عذابها قال القرطبي: وإنما قال ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ لأنهم عُذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر[٤] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؟

= وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين، فسبحان الحكيم العليم!. **(ش):** بما ينوء عنه العصبة أولو القوة: أي لا يستطيعون حمْلَه. البراري: الصحاري.

(١) **(ش):** سَمْكَهَا: سَقْفَهَا.

(٢) أثبت علماؤنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها، أو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٧.

٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ المراد أصحابها.

٣ - الطباق في الحرف بين ﴿إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ .. عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَذَكِّرْ .. مُذَكِّرٌ﴾ وبين ﴿فَيُعَذِّبُهُ .. ٱلْعَذَابَ﴾.

٥ - المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

٦ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾.. إلخ.

تنبيه: روي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه لما قدم الشام، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني؟ فقال: ذكرتُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيتُ رحمةً عليه[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٢.

سُورَةُ الفَجْرِ ٨٩ ٣٠

مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الفجر مكية، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسة وهي:

١- ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله، كقوم عاد، وثمود، وقوم فرعون، وبيان ما حل بهم من العذاب والدمار، بسبب طغيانهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ الآيات.

٢- بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ...﴾ الآيات.

٣- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، وبيان مآل النفس الشريرة، والنفس الكريمة الخيرة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ

اللغة: ﴿حِجْرٍ﴾ عقل ولُبٌّ قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، وأصل الحَجْر المنع، وسمي العقل حجرًا؛ لأنه يمنع عن السفه قال الشاعر:

وَكَيْفَ يُرْجَى أَنْ تَتُوبَ وَإِنَّمَا ... يُرْجَى مِنَ الْفِتْيَانِ مَنْ كَانَ ذَا حِجْرِ[1]

﴿جَابُوا﴾ قطعوا ومنه قولهم: فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿التُّرَاثَ﴾ الميراث ﴿لَمًّا﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٤٣.

شديدًا وأصله الجمع ومنه قولهم: لَمَّ اللهُ شَعْثَه [١]

﴿جَمًّا﴾ كثيرًا عظيمًا كبيرًا قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا [٢]

التفسير: ﴿والفجر وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ هذا قَسَمٌ [٣] أي أُقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج [٤] قال المفسرون: أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة، لأنها أفضل أيام السنة، كما ثبت في صحيح البخاري: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ -» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» [٥].

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ أي وأقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء، لأن الأشياء إما زوجٌ وإما فردٌ، أو هو قسمٌ بالخلق والخالق، فإن الله تعالى واحد «وتر» والمخلوقات ذكرٌ وأنثى «شفع» [٦] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي وأقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة، والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة ﴿هَلْ فِي

(١) (ش): لَمَّ اللهُ شَعْثَه: أَيْ جَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أُمُورِهِ. لَمَّ اللهُ شعثَهم: جمع شملَهم وضمّ شتاتَهم بعد تفرُّق.

(٢) (ش): الْبَيْتُ لُأَمِيَّةَ بْنِ الصَّلْتِ، وقد أَنْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا» (رواه الترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (الْكَبَائِرُ) كُلُّ ذَنْبٍ تَوَعَّدَ اللهُ عَلَيْهِ بِالنَّارِ أَوْ مَا عَيَّنَ لَهُ حَدًّا أَوْ ذَمَّ فَاعِلَهُ ذَمًّا شَدِيدًا. وَالْفَوَاحِشُ جَمْعُ فَاحِشَةٍ وَهِيَ كُلُّ ذَنْبٍ فِيهِ وَعِيدٌ أَوْ مُخْتَصٌّ بِالزِّنَا. (اللَّمَمَ) أَيْ الصَّغَائِرَ. (إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا) أَيْ كَثِيرًا كَبِيرًا. وَ(إِنْ تَغْفِرْ) لَيْسَ لِلشَّكِّ بَلْ لِلتَّعْلِيلِ نَحْوِ إِنْ كُنْتَ سُلْطَانًا فَأَعْطِ الْجَزِيلَ، أَيْ لِأَجْلِ أَنَّكَ غَفَّارٌ اغْفِرْ جَمًّا. (وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا) أَيْ لَمْ يُلِمَّ بِمَعْصِيَةٍ يُقَالُ أَلَمَّ إِذَا فَعَلَ اللَّمَمَ. أَيْ مِنْ شَأْنِكَ غُفْرَانُ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبٍ عِظَامٍ. وَأَمَّا الْجَرَائِمُ الصَّغِيرَةُ فَلَا تُنْسَبُ إِلَيْكَ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلُو عَنْهَا وَأَنَّهَا مُكَفَّرَةٌ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

(٣) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٤) هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس، وقيل هي العشر الأخير من رمضان؟ لأن فيها ليلة القدر، وهي رواية أيضًا عن ابن عباس، والأول أرجح.

(٥) (ش): (لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ): أي ذهب مالُه واستُشهِد.

(٦) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا أن الشفع يوم النحر لكونه العاشر، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع، وذكرت أقوال أخرى كثيرة غير هذه.

﴿ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي هل فيما ذُكِر من الأشياء قسمٌ مُقنِع لذي لُبٍّ وعقل؟ والاستفهام تقريريٌّ لفخامة شأن الأمور المقسَم بها، كأنه يقول: إن هذا لقسمٌ عظيمٌ عند ذوي العقول والألباب، فمن كان ذا لُب وعقل عَلِم أن ما أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ به من هذه الأشياء فيها عجائب ودلائل تدل على توحيده وربوبيته، فهو حقيق بأن يُقسم له لدلالته على الإله الخالق العظيم قال القرطبي: قد يُقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه، ويُقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣] ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما قال ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1] وجواب القسم محذوب تقديره: ورب هذه الأشياء ليعذبنَّ الكفار[2]، ويدل عليه قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك، ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي عادٍ الأولى أهل إِرَم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم، والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع تعالى بعاد، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعمارًا، وأشَدَّ قوة من كفار مكة!؟ قال ابن كثير: وهؤلاء «عاد الأولى» وهم الذين بعث الله فيهم رسوله «هودًا» عليه السلام فكذبوه وخالفوه، وكانوا عتاة متمردين جبارين، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمَّرهم، وجعلهم أحاديث وعِبرًا[3] ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي وكذلك ثمود الذين قطعوا صخر الجبال، ونحتوا بيوتًا بوادي القُرى ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة ثمود وكانوا لِقُوتِهم يُخرِجون الصخور، ويَنْقُبون الجبال[4] فيجعلونها بيوتًا لأنفسهم، وقد بنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى[5] ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه قال أبو السعود: وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد[6] ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ أي أولئك المتجبرين «عادًا، وثمود، وفرعون» الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله، وجاوزوا

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٤١.
(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٢٢.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٣٦.
(٤) (ش): نقَب البناءَ أو نقَب الحائِطَ: ثقبَه، وفتح فيه ثُغرَةً.
(٥) انظر القرطبي ١٩/ ٤٨، والبحر المحيط» ٨/ ٤٧٠.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٢.

الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجَوْر[١] والقتل، وسائر المعاصي والآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي فأنزل عليهم ربك ألوانًا شديدة من العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم قال المفسرون: استعمل لفظ الصبّ لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب، كما قال القائل «صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ سِيَاطَنَا» والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعًا من العذاب، فأُهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠][٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي إن ربك يا محمد لَيَرْقُب عمل الناس، ويُحصيه عليهم، ويجازيهم به. قال في التسهيل: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصَد[٣]، والمراد أنه تعالى رقيبٌ على كل إنسان، وأنه لا يفُوته أحد من الجبابرة والكفار، وفي ذلك تهديدٌ لكفار قريش[٤].. ولما ذكر تعالى ما حلَّ بالطغاة المتجبرين، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر، الذي يبطر عند الرخاء، ويقنط عند الضراء فقال ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ أي فأكرمه بالغِنَى واليسار[٥]، وجعله مُنَعَّمًا في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ أي فيقول: ربي أحسن إليَّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي فيقول غافلًا عن الحكمة: إن ربي أهانني بتضييقه الرزق عليَّ قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظّ في الدنيا وقلّته، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره[٦]، وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وقوله ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر، لا على وجه الشكر، وقال: أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير، ويصبر على الشر، ولهذا ردعه وزجره بقوله ﴿كَلَّا﴾[٧] أي ليس الإكرام بالغنى، والإهانة بالفقر كما تظنون، بل الإكرام والإهانة بطاعة الله ومعصيته

---

(١) (ش): الجَوْر: الظلم.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٠، وانظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣١٧.

(٣) (ش): رَصَد: راصِدٌ، مُراقِب.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٧.

(٥) (ش): يَسار: غِنًى وثَرْوة، رخاء، سِعَة.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥١.

(٧) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾، والمُثبَت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

ولكنكم لا تعلمون، ثم قال ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي بل أنتم تفعلون ماهو شرٌّ من ذلك، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إكرام الله لكم بكثرة المال! ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضًا ولا يحثه على إطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي وتأكلون الميراث أكلًا شديدًا، لا تسألون أمن حلالٍ هو أم من حرام؟ قال في التسهيل: هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره، لأن العرب كانوا لا يُعطون من الميراث أنثى ولا صغيرًا، بل ينفرد به الرجال[1] ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي وتحبون المال حبًّا كثيرًا مع الحرص والشرَهِ[2]، وهذا ذَمٌّ لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ للردع أي: ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب، وذلك حين تُزلزَل الأرضُ وتُحَرَّكُ تحريكًا متتابعًا، قال الجلال: أي زُلْزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدِم كُلّ بِنَاء عَلَيْهَا وَيَنْعَدِم[3] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاء الملائكة صفوفًا متتابعة صفًا بعد صف، قال في التسهيل: قال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييفٍ ولا تمثيل[4] وقال ابن كثير: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ، فيجيء الربُّ تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا[5] ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كقوله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧] وفي الحديث «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٨.

(٢) (ش): الشَّرَه: شدة الحرص.

(٣) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣١٨.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٨. (ش): ما ذكره المؤلف في بداية تفسير الآية هو الصواب، فالماجيء صفة من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكَيْف. وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لا يصح تأويله بظهور الله للخلق. بل هذا مع مخالفته لظاهر القرآن يخالف نص السنة الصحيحة، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَجْمَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ» (رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والحاكم وصححه، وحسنه الذهبي، وصححه الألباني). وبذلك قال أئمة التفسير. قال الإمام الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤١٧): «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَمْلَاكُهُ صُفُوفًا صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ». اهـ. ثم أورد من الأحاديث والآثار ما يدل لقوله ويثبت مجيء الله تعالى. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٩٩): ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٍ ﷺ،... فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِي ذَلِكَ،... فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٨.

سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا »[١] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب، يتذكر الإنسان علمه، ويندم على تفريطه وعصيانه، ويريد أن يُقْلِع[٢] ويتوب ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها؟! ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي يقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني قدمت عملًا صالحًا ينفعني في آخرتي، لحياتي الباقية قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ولا يُقَيِّد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثلَ تقييدِ الله للكافر الفاجر، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا فزع ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضيةً بما أعطاك الله من النعم، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل قال المفسرون: هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يليك

١ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿وَٱلشَّفْعِ .. وَٱلْوَتْرِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ .. ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٤ - المقابلة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ وبين ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ الآية فقد قابل بين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهَٰنَنِ﴾ وبين توسعة الرزق[٣].

٥ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعذَّب واستعمل الصبَّ للإنزال.

٦ - الالتفات ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب، والأصل ﴿بل لا يكرمون﴾.

٧ - الإضافة للتشريف ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾.

٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ومثل ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

(٢) (ش): أي يُقْلِع عن الذنوب، أقلع عن الشَّيءِ: كَفَّ عنه وتركه، امتنع وتوَقَّف عنه.

(٣) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: وبين تَوسعة الرزق وتضييق الرزق.

سُورَةُ الْبَلَدِ ٩٠

مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، من تثبيت العقيدة والإيمان، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء، والتمييز بين الأبرار والفجار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام، تعظيمًا لشأنه، وتكريمًا لمقامه الرفيع عند ربه، ولفتًا لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى.

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة، الذين اغتروا بقوتهم، فعاندوا الحقَّ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة، ظنًا منها أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع.

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها يجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح.

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب، وبينت مآل السعداء، ومآل الأشقياء، في دار الجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ

اللغة: ﴿كَبَدٍ﴾ الكبَدُ: الشدة والمشقة، وأصله من كَبِد الرجل كبَدًا إذا وجعَتْه كبِدُه ثم استعمل في كل تعَب ومشقة، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ الاقتحامُ: الدخول بسرعة وشدة يقال: اقتحم الأمر، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون رَوِيَّة[1] ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾

(١) (ش): رَوِيَّة: نَظَرٌ وتفكيرٌ في الأمور.

الطريق الوَعْر في الجبل[١] ﴿فَكُّ﴾ الفكُّ تخليص الشيء من الشيء يقال: فككت الحبل، وفككت الأسير، أي: خلصته من الأسر ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة يقال: سَغِبَ الرجل إذا جاع وقال الراغب: هو الجوع مع التعب[٢] ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ افتقار يقال: تربَ الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى[٣] ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مُطْبَقَة من أوْصَد البابَ إذا أغلقه وأطبَقه[٤].

التفسير: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ هذا قسمٌ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام «مكة»[٥] التي شرَّفها الله تعالى بالبيت العتيق قبلة أهل الشرق والغرب، وجعَلَها مهبِط الرحَمَات[٦]، وإليها تُجبَى ثمراتُ كل شيء، وجعلها حرمًا آمنًا، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض[٧]، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل: أراد بالبلد «مكة» باتفاق، وأقسم بها تشريفًا لها[٨] ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيَّده بحلوله عليه السلام فيه أي إقامته فيه إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله[٩] ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي وأُقسم بآدم وذريته الصالحين قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ جميع ذريته قال ابن كثير: وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن وهو «آدم» أبو البشر وولده[١٠]. وقال الخازن: أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان من ذريته لا حرمة له

---

(١) (ش): طريق وَعْر: طريق صلْب، والسَّيرُ فيه صعبٌ، مخيف، مُوحِش.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٣٨.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٧٣.

(٤) (ش): أطبقَ: أغلق.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

(٦) (ش): أي مكان نزول الرحَمَات. مَهْبَط/ مَهْبِط: مكان النُّزول.

(٧) في الحديث الذي رواه الشيخان: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». الحديث. (ش): أي يَسَّرَ الله وصُولَ الثَّمَرَاتِ والأَمتِعَةِ والأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إِلى أهلِ الحَرَمِ.

(٨) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٩.

(٩) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٦٦٠.

(١٠) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٠.

حتى يقسم به[١] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ هذا هو المقْسَم عليه أي لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه قال ابن عباس: ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي في مشقة وشدة، من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، ومعاشه، وحياته، وموته[٢]، وأصل الكبد: الشدة، وقيل: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق[٣] قال أبو السعود: والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة[٤].. ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان الجاحد بقدرة الله، والمكذب للبعث والنشور فقال ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر، المغتر بقوته، أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي الأشد بن كلدة» كان شديدًا مغترًّا بقوته، وكان يبسط له الأديم الجلد فيوضع تحت قدميه، ويقول: «مَن أزالني عنه فله كذا»، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعًا ولا تَزِلّ قدماه[٥]، ومعنى الآية: أيظن هذا القوي المارد، المستضعف للمؤمنين، أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي يقول هذا الكافر: أنفقت مالًا كثيرًا في عداوة محمد ﷺ قال الألوسي: أي يقول فخرًا ومباهاة على المؤمنين: أنفقت مالًا كثيرًا، وأراد بذلك ما أنفقه «رياءً وسمعةً» وعبر عن الإنفاق بالإهلاك، إظهارًا لعدم الاكتراث، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع، فكأنه جعل المال الكثير ضائعًا، وقيل: يقول ذلك إظهارًا لشدة عداوته لرسول الله ﷺ[٦] ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟ أي أيظن أنَّ الله تعالى لم يره حين كان ينفق، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد؟ ليس الأمر كما يظن، بل إن الله رقيب مطلعٌ عليه، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه. ثم ذكَّره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ أي ألم نجعل له عينين يُبصِر بهما؟ ﴿وَلِسَانًا﴾ أي ولسانًا ينطق به فيعبر عما في ضميره؟ ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ أي وشفتين يُطْبِقهُما[٧] على فمه، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك، قال الخازن: يريد أن نِعم الله على عبده مُتظاهرة، يقرره بها كي يشكره[٨] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي وبَيَّنَّا له طريقَي الخير والشر، والهدى والضلال، ليسلك طريق السعادة، ويتجنب طريق الشقاوة قال ابن مسعود: ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ الخير والشر كقوله تعالى

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.
(٣) نفس المرجع السابق.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٥.
(٥) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وفيه مبالغة ظاهرة في قوة هذا الرجل.
(٦) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٣٦.
(٧) (ش): يُطْبِقهُما: يُغلِقهما.
(٨) «تفيسر الخازن» ٤/ ٢٤٩.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣][١] ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي فهلا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود[٢]، بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ؟! قال في البحر: والعقبةُ استعارةٌ للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهًا لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها، ومعنى اقتحمها دخلها بسرعة وشدة[٣]، وهو مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رِضَى الرحمن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾[٤] أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل.. ثم فسرها تعالى بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأَسْر والرِّقّ، فمن أعتق رقبة كانت له فداءً من النار[٥] ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة. قال الصاوي: وقيد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس[٦] ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد لصق بالتراب مِن فَقْره وضُرِّه، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمنًا صادق الإيمان قال المفسرون: وفي الآية إشارة أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشرار، أي: والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال أهل النار لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قُدْسه، وكرامَة أُنسِه ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي عليهم نارٌ مُطْبَقَة مُغلَقة، لا يدخل فيها رَوْحٌ ولا رَيْحَان[٧]، ولا يخرجون

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤١.

(٢) (ش): كأَد الأمرُ عليه: اشتدّ وصعُب. عقبة كئود: صعبة، يصعب صعودها وتجاوزها.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٧٦.

(٤) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، والمُثبَت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

(٥) (ش): قال ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٢.

(٧) (ش): رَوْحٌ: رَاحَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ.

منها أبَدَ الزمان[١]. اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من ذلك يا رب.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - زيادة ﴿لَآ﴾ لتأكيد الكلام، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي أُقسم بهذا البلد، وفائدتها تأكيد القسم كقولك: لا والله ما ذاك كما تقول، أي: والله. قال امرؤ القيس: « لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ... »[٢].

٢ جناس الاشتقاق ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة.

٣ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾؟

٥ - الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾؟ لأن الغرض تعظيم شأنها.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي طريقَي الخير والشر، وأصل النجد الطريق المرتفع، استُعِير كلٌّ منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة.

٧ - الاستعارة كذلك في قوله ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ لأن أصل العقبة الطريق الوَعْر في الجبل، واستُعِيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها لا تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿مَقۡرَبَةٍ﴾ و﴿مَتۡرَبَةٍ﴾ لتغير بعض الحروف.

٩ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ وبين ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ.. وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ ومثل ﴿عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي و«البحر المحيط» وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير.
(ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رَيْحان: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعُ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٢) (ش):

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ ... لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ إِنِّي أَفِرُّ

(ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

سُورَةُ الشَّمْسِ ٩١ ١٥

مكية وآياتها خمس عشرة

بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما:

١- موضوع النفس الإنسانية، وما جبلها الله عليه من الخير والشر، والهدى والضلال.

٢- وموضوع الطغيان ممثلًا في ﴿ثَمُودُ﴾ الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلى ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، وأقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* ثم ذكر تعالى قصة ﴿ثَمُودُ﴾ قوم صالح حين كذبوا رسولهم، وطغوا وبغوا في الأرض، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم[1]

معجزة لرسوله صالح عليه السلام، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقى عبرة لمن يعتبر، وهو نموذج لكل كافرٍ فاجر مكذب لرسل الله.

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا

اللغة: ﴿وَضُحَاهَا﴾ ضوءها، والضحى وقت ارتفاع الشمس أول النهار قال المبرد: الضحى مشتقٌّ من الضَحِّ وهو نور الشمس[2] ﴿طَحَاهَا﴾ بسَطَها ومَدَّها قال الجوهري: طَحَوتُه مثل

(١) (ش): صخر أصمُّ: صُلْب متين، مُصْمَت لا فراغ فيه.

(٢) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٤٠.

دَحَوْته أي بسَطْتُه[١] ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أخفاها وأصل الكلمة دسَّسَها أُبدِلَت السين الثانية ألِفًا تخفيفًا ﴿فَدَمْدَمَ﴾ الدمْدمة: إطباقُ الشيء على الشيء[٢] يقال: دمدم عليه القبر، أي: أطبَقَه، والمراد به هنا إطباقُ العذاب عليهم بمعنى إهلاكهم بطريق الاستئصال ﴿عُقْبَىٰهَا﴾ عاقِبَتها وتَبعَتها.

التفسير: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي أُقسم بالشمس وضوئها الساطع إذا أنار الكون وبدَّد الظلام[٣] ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي وأُقسم بالقمر إذا سطع مضيئًا، وتبع الشمس طالعًا بعد غروبها قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخَلَفها في النور، وحكمةُ القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات، فإذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقتُ الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها، والشمسُ والقمر مخلوقان لمصالح البشر، والقسم بهما للتنبيه على مافيهما من المنافع العظيمة[٤] ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي وأُقسم بالنهار إذا جلا ظلمة الله بضيائه، وكشفها بنوره وقال ابن كثير: إذا جلَّى البسيطة وأضاء الكون بنوره[٥] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي وأقسمُ بالليل إذا غطَّى الكون بظلامه، ولفَّه بشَبَحه، فالنهار يُجَلِّي المعمورة ويُظهِرها، والليل يغطِّيها ويَستُرها، قال الصاوي: وأتى بالفعل مضارعًا ﴿يَغْشَاهَا﴾ ولم يقل ﴿غشاها﴾ مراعاةً للفواصل[٦] ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء، وأحكم بناءها بلا عمد قال المفسرون: ﴿وَمَا﴾ اسم موصول بمعنى «منْ» أي والسماء ومن بناها والمراد به الله رب العالمين، بدليل قوله بعده ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها، فدلَّ بناؤها وإحكامها على وجوده، وكمال قدرته[٧] ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي وأُقسمُ بالأرض ومن بسطها من كل جانب، وجعلها ممتدة ممهَّدة، صالحة لسُكْنَى الإنسان والحيوان[٨]، وهذا لا ينافي كرويتها كما

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٤.

(٢) (ش): أطبقَ الشيءُ الشيءَ: غطّاه.

(٣) (ش): تقدَّم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يجوز أَنْ يُقْسِمَ إِلا بِالْخَالِقِ.

(٤) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٣.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٤.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢١.

(٧) (ش): ليس المراد من ذكر الآيات الكونية مجرد الاستدلال على وجود الله؛ لأن المخاطَبين يُقِرُّون بذلك وإنما المراد الاستدلال على إفراده بالعبادة وهو الذي يجحده المخاطَبون. ومما يؤيد أن المراد الاستدلال على إفراده بالعبادة أن المؤلف قد قال بعد قليل: إن الله أقسم بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية.

(٨) (ش): سكَن المكانَ/ سكَن بالمكانِ/ سكَن في المكانِ: أقام به واستوطنه.

قال المفسرون،[١] لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة، ميسَّرة للزراعة والفِلاحة[٢] وسُكْنَى الإنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي وأُقسمُ بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها، وجعلها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها، وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور، ولهذا قال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي وعرَّفها الفجور والتقوى وما تميز به بين رشدها وضلالها قال ابن عباس: بيَّن لها الخير والشر، والطاعة والمعصية، وعرَّفها ما تَأْتِي وما تَتَّقِي[٣]، قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعِظَم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها وقال الإمام الفخر: لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عِظَمِها، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة، ووصفها جلَّ وعلا بصفاتٍ ثلاث[٤] ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته، كما يليق به جلَّ جلاله، فكان ذلك طريقًا إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات، إلى بيداء أَوْج كبريائه جلَّ شأنه[٥] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: لقد فاز وأفلحَ من زكَّى نفسه بطاعة الله، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي وقد خسر وخاب من حقَّر نفسه بالكفر والمعاصي، وأوْرَدها موارد الهلكة، فإنَّ من طاوع هواه، وعصى أمر مولاه، فقد نقَص من عِداد العقلاء[٦]، والتحق بالجهلة الأغبياء ثم ضرب تعالى مثلًا لمن طغَى وبغَى، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان، فذكر ﴿ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا﴾ أي كذَّبت ثمودُ نبيَّها بسبب طغيانها ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعةٍ ونشاط يعقر الناقة قال ابن كثير: وهو «قدار بن سالف» الذي قال الله فيه ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وكان عزيزًا شريفًا في قومه، ورئيسًا مطاعًا فيهم، وهو أشقى القبيلة[٧] ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء،

---

(١) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان.

(٢) (ش): الفِلاحة: الزراعة؛ القيام بشئون الأرض الزراعيّة مِن حَرْث وزَرع ورَيّ وغيرِ ذلك.

(٣) (ش): أي عرَّفها ما يجب عليها أن تفعله، وما يجب عليها ألا تفعله.

(٤) (ش): هذه الصفات الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٥ - ٧]، قال الرازي: «ثُمَّ ذَكَرَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَوَصَفَهَا بِصِفَاتٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ تَدْبِيرُهُ سُبْحَانَهُ لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلِلْمُرَكَّبَاتِ، وَنَبَّهَ عَلَى الْمُرَكَّبَاتِ بِذِكْرِ أَشْرَفِهَا وَهِيَ النَّفْسُ» [«التفسير الكبير» (٣١/ ١٧٥)].

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠. (ش): أَوْج: قمَّة، ذروة أو علوّ وارتفاع.

(٦) (ش): أي لم يَعُدْ منهم. يقال: فلان في عِداد الصَّالحين: أي من بينهم، في جملتهم، معدودٌ منهم.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٥.

واحذروا أيضًا أن تمنعوها من سُقياها، أي: شربها ونصيبها من الماء كما قال تعالى ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا نبيه صالحًا وقتلوا الناقة، ولم يلتفتوا إلى تحذيره ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أي فأهلكهم اللهُ ودمَّرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم قال الخازن: والدمْدَمة: هلاكٌ باستئصال. والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقًا فلم ينفلت منهم أحد[1] ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوَّى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا غنيٌ ولا فقير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون، لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ﴾ و ﴿وَٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وبين ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ وبين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ وبين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ وكلٌ من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية.

٣ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ نسبت إلى الله تشريفًا لأنها خرجت من حجرٍ أصم معجزةً لصالح عليه السلام.

٤ - التهويل والتفظيع ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

٥ - السجع المرصَّع مراعاة للفواصل ورءوس الآيات وهو ظاهِرٌ جَلِيٌّ في السورة الكريمة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «الخازن» ٤/ ٤٣٣.

٩٢ سُورَةُ اللَّيْلِ ٢١

مكية وآياتها إحدى وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الليل مكية، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل[1] إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

* ثم وضحت سبيل السعادة، وسبيل الشقاء، ورسمت الخط الباني لطالب النجاة، وبينت أوصاف الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها، وثرواتهم التي كدسوها، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئًا، وذكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾.

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في وجوه الخير، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله، وضربت المثل بابي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[2].

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): انظر التعليق التالي.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ

اللغة: ﴿تَجَلَّىٰ﴾ انكشف وظهر ﴿لَشَتَّىٰ﴾ متفرِّق ومختلِف ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ الخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة وهي الجنة ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ هلكَ وسقَط في الهاوية ﴿تَلَظَّىٰ﴾ أصلها تتَلظى أي تتلَهَّب وتتوقَّد ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾ يدخلها ويقاسي حرها.

المناسَبة: روي أن بلالًا رَضِيَ اللهُ عَنْه كان عبدًا مملوكًا ل «أُمية بن خلف» وكان سيده يعذبه لإسلامه، ويخرجه إذا حميت الشمسُ فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد! (فيقول وهو في تلك الحالة: أحدٌ، أحدٌ، فمرَّ به أبو بكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين) ! فقال له: أنت أفسدته عليَّ فأنقذه مما ترى، فاشتراه أبو بكرٍ منه وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1].

التفسير: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي أُقسمُ بالليل إذا غطَّى بظلمته الكون، وستر بشبحه الوجود ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي وأُقسمُ بالنهار إذا تجلَّى وانكشف، وأنار العالم وأضاء الكون قال المفسرون: أقسم تعالى بالليل لأنه سكنٌ لكافة الخلق، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب والحركة، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٦، و«تفسير الخازن» ٤/ ٢٥٦. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهناك رواية أخرى أن سبب نزولها إعتاق أبي بكر لبلال رضي الله عنهما خصوصًا، رواها الآجريُّ في «الشريعة» وأبو الشيخ، والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: « نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٢٠] فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ». (حسن، رواه البزار). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ أَبُو قُحَافَةَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجَالًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ وَيَقُومُونَ دُونَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «يَا أَبَتِ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ»، قَالَ: فَيُتَحَدَّثُ مَا نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِ، وَفِيمَا قَالَ أَبُوهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٦].(رواه أحمد في فضائل الصحابة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي). جُلْدًا: جمع جَلْد: قوي، شديد البأس. قَالَ: فَيُتَحَدَّثُ مَا نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِ،... هذا من كلام عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. وقد ثبت أن أبا بكر أعتق بلالًا رضي الله عنهما، فعَنْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: « أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلَالًا. رواه البخاري.

الـرزق، والحكمة في هذا القسـم ما في تعاقب الليل والنهار مـن مصالح لا تُحصى فإنه لو كان العمـر كله ليلًا لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارًا لما سـكن الإنسـان إلـى الراحة، ولَاخْتَلَّتْ مصالحُ البشر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى، من نطفةٍ إذا تُمْنَى.. أقسم تعالى بذاته على خلق النوْعَيْن ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ للتنبيه على أنه الخالق المبـدع الحكيـم، إذْ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكـر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعـة بلهاء لا شـعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المَنِيّ متسـاوية، فتكويـنُ الولد من عناصر واحدة تارةً ذكرًا، وتارة أنثى، دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، مُحكِمٌ لما يصنع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هـذا هو جواب القسـم أي إن عملكـم لمختلف، فمنكم تقِيٌّ ومنكم شـقِيٌّ، ومنكـم صالـحٌ ومنكم طالِحٌ[1]، ثم فسَّـره بقولـه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي فأما مـن أعطى ماله وأنفـق ابتغاء وجه الله، واتقـى ربه فكف عن محارم الله قال ابن كثيـر: أعطى ما أُمِرَ بإخراجه، واتقـى الله في أمـوره[2] ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وصدَّق بالجنة التي أعدَّهـا الله للأبرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي فسـنُهَيِّئُه لعمَل الخير، ونسـهّل عليه الخصلة المؤدية لليسـر، وهي فعل الطاعات وتـرك المحرمـات ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق المال، واسـتغنى عن عبادة ذي الجلال قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه عزَّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي فسـنهيئه للخصلة المؤدية للعسر، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشـر قال المفسرون: سمَّى طريقة الخير يسرى؛ لأن عاقبتها اليسر وهـي دخول الجنة دار النعيم، وسـمَّى طريقة الشـرِّ عسـرى؛ لأن عاقبتها العسـر وهو دخول الجحيـم ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ اسـتفهام إنكاري أيْ أيُّ شـيء ينفعه مالـه إذا هلك وهو في نـار جهنم؟ هـل نفعه المال، ويدفع عنه الوبـال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينـا أن نُبَيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضِّح سـبيل الرشـد من سبيل الغَيِّ كقوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي لنـا مـا في الدنيا والآخـرة، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي فحذَّرْتُكم يا أهل مكة نارًا تتوقَّد وتتوهج من شـدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سـعيرها، إلاّ الكافر الشـقي.. ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي وسيُبعَد عن النار التَّقِيُّ النَّقِيُّ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي.. ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها،

(١) (ش): طَالِح: شِرِّير، فاسد، خلاف صالح.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٦.

وإنما ينفق لوجه الله قال المفسرون: نزلت الآيات في حقِّ «أبي بكر الصديق» حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1] قَالَ أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ أي ولسوف يعطيه الله في الآخرة ما يرضيه وهو وعدٌ كريم من رب رحيم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظة ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ و ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ وبين ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ و ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الآيات.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة.

٤ - حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ..﴾ الآيات.

٥ - السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى.. وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ إلخ.

كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه يقول: أعتق سيدُنا سيدَنا يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالًا، فما أروع هذه النفوس! اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعًا[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) مُحَقِّقُهُ: انظر التعليق التالي.

(٢) (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلَالاً. (رواه البخاري).

سُورَةُ الضُّحَىٰ ٩٣ ١١

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة[1]، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون، بل هو عند الله رفيع القدر، عظيم الشأن والمكانة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة، وما أداه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات، ومنها الشفاعة العظمى ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾.

* ثم ذكرته بما كان عليه في الصغر، من اليتيم، والفقر، والفاقة، والضياع، فآواه ربه وأغناه وأحاطه بكلئه وعنايته ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾.

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث، مقابل تلك النعم الثلاث، ليعطف على اليتيم ويرحم المحتاج، ويمسح دمعة البائس المسكين ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾

اللغة: ﴿سَجَىٰ﴾ سجى الليلُ: اشتد ظلامُه ﴿قَلَىٰ﴾ أبغض قال الراغب: القَلْيُ: شدةُ البُغض، يقال: قلاه ويقليه أي أبغضه[2] ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ ضمَّه إلى من يرعاه ﴿عَآئِلٗا﴾ فقيرًا معدمًا وهو من اشتد به الفقر قال جرير:

اللهُ نَـزَّلَ فِـي الْـكِـتَـابِ فَـرِيـضَـةً ... لِابْـنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ[3]

---

(١) (ش): يقال: حباه اللهُ الخيرَ: أي أعطاه بلا جزاء.

(٢) «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٦.

﴿تَقْهَرْ﴾ تذلّه وتحقِره ﴿تَنْهَرْ﴾ تزْجُره وتُغلِظ عليه في الكلام.

سَبَبُ النّزول: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأةٌ وهي أم جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثًا فأنزل اله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١).

التفسير: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمسُ، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطّى كل شيء في الوجود قال ابن عباس: ﴿سَجَىٰ﴾ أقبل بظلامه(٢) قال ابن كثير: هذا قسمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وادْلَهَمَّ(٣)، وذلك دليلٌ ظاهر على قدرته تعالى(٤) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌّ على المشركين حين قالوا: هجره ربه، وهو جواب القسم ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي وللدارُ الآخرة خيرٌ لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا، لأن الآخرة باقية، والدنيا فانية، ولهذا كان عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ»(٥) ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب، والكرامة، والشفاعة، وغير ذلك إلى أن ترضى قال ابن عباس: هي الشفاعة في أُمته حتى يرضى، لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي. وَبَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ: اللهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ»(٦)، وفي الحديث «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٧) الحديث

---

(١) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة. (ش): وقد ورد ذِكرُ اسم المرأة في حديث ضعيف رواه الحاكم عن زيد بن أرقم -رضي الله عنه-؛ قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ [المسد: ٤- ٥]؛ قال: فقيل لامرأة أبي لهب: إن محمدًا قد هجاك؛ فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد! على ما تهجوني؟ قال: فقال: «والله ما هجوتك، ما هجاك إلا الله»، قال: فقالت: هل رأيتني أحمل حطبًا أو رأيت في جيدي حبلًا من مسد، ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ أيامًا لا ينزل عليه؛ فأتته فقالت: يا محمد! ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٨٥٢.

(٣) (ش): ادلهمَّ اللَّيلُ/ ادلهمَّ الظَّلامُ: كَثُف واسْوَدَّ، اشتدّ سوادُه.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) أخرجه الشيخان.

قال الخازن: والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معًا، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة[1].. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل، ذكَّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي ألم تكنْ يا محمد يتيمًا في صغرك، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمَّك إليه؟ قال ابن كثير: وذلك أن أباه توفي وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أُمه وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده «عبد المطلب» إلى أن تُوفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه «أبو طالب» ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ، وكلُّ هذا من حفظ الله له، وكلاءته وعنايته به[2] ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي ووجدك تائهًا عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال الإمام الجلال: أي وجدك ضالًّا عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها[3]، وقيل: ضلَّ في بعض شعاب مكة وهو صغير فردَّه الله إلى جده[4] قال أبو حيان: لا يمكن حَمْله على الضلال الذي يقابله الهدى، لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس: هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، وقيل: ضلَّ وهو مع عمه طريق الشام[5] ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي ووجدك فقيرًا محتاجًا فأغناك عن الخلق، بما يسَّ لك من أسباب التجارة.. ولمَّا عدَّد عليه هذه النعم الثلاث، وصَّاه بثلاث وصايا مقابله فقال ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله قال مجاهد: أي لا تحتقره وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله، والمراد كن لليتيم كالأب الرحيم، فقد كنت يتيمًا فآواك الله ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي وأمَّا السائل المُستَجْدِي[6] الذي يَسأل عن حاجةٍ وفقرٍ، فلا تزجُرْه إذا سألك ولا تُغلِظ له القول بل أعْطِه أو رُدَّه ردًّا جميلًا قال قتادة: ردَّ المسكين برفقٍ ولين ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي حدِّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك، فإن التحدث بالنعمة شكر لها قال الألوسي: كنت يتيمًا وضالًّا وعائلًا، فآواك الله وهداك وأغناك، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، فتعطَّفْ على اليتيم، وترحَّمْ على السائق، فقد ذُقْتَ اليُتْم والفقر، وأَرْشِد العباد

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٥٨.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٠.
(٣) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣٣٠.
(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٦٠.
(٥) «البحر المحيط» في التفسير ٨/ ٤٨١.
(٦) (ش): المُستَجْدِي: مَن يستَجْدي الناسَ، أي يطلب منهم العَطِيّة مُسترحِمًا مُتوسِّلاً.

إلى طريق الرشاد، كما هداك ربُّك[١].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ و ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ .. وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ قابلها بقوله ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وهي من لطائف علم البديع.

٣ - الجناس الناقص بين ﴿تَقْهَرْ﴾ و ﴿تَنْهَرْ﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين.

٤ - السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم في عقد كريم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إلخ.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الضحى»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٦٤.

سُورَةُ الشَّرْحِ ٩٤ ٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الانشراح مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجلية، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك بشرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

* وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فآنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

* وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة، شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجلية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب

التفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان، ونور القرآن كقوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] قال ابن كثير: أي نورناه وجعلناه فسيحًا، رحيبًا، واسعًا، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا، سمحًا، سهلًا، لا حرج فيه ولا إصرْ ولا ضيق[1] وقال أبو حيان: شرحُ الصدر تنْويرُه بالحكمة، وتوسيعه لتَلَقِّي ما يُوحَى إليه وهو قول الجمهور، وقيل: هو شَقُّ جبريل لصدره في صغره وهو مرويٌّ عن ابن عباس[2] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي حطَطْنا

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٥٦.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٨٧، والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ =

عنـك حملك الثقيل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك قال المفسـرون: المراد بالـوزر الأمور التي فعلهـا ﷺ، وَوَضْعُها عنه هو غفرانها له كقوله تعالى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسـرى بدر، وعبسـه في وجه الأعمى ونحو ذلك، قال في التسـهيل: وإنما وصفت ذنـوب الأنبياء بالثقل، وهي صغائر مغفورة لهم، لهمِّهم بها وتحسـرهم عليها؛ فهي ثقيلة عندهم لشـدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[1] والنقيضُ هوَ الصوتُ الذي يسمع من المَحْمَل فوق ظهر البعير مِن شـدة الحمل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي رفعنا شأنك، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة، وجعلنا اسـمك مقرونًا باسـمي قال مجاهد: لا أُذكَر إلا ذُكِرْتَ معي وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا مُتَشهّد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله، وفي الحديث «أتاني جبريل فقال لي يا محمد: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»[2]

قال في البحر: قرن الله ذكر الرسـول بذكره جل وعلا في كلمة الشـهادة، والأذان والإقامة، والتشـهد، والخطب، وفي غيـر موضع من القرآن، وأخذ على الأنبيـاء وأممهم أن يؤمنوا به[3]

= عَلَقَةً فَقَالَ: «هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ». ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ الْمُرضِعة - فَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ». فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (ش): العَلَقَة: الدَّمُ الغَليظُ المُنعَقِد. (الطَّسْتُ): الطَّشْتُ: إِنَاءٌ مَعْرُوفٌ: إناء كبير مستدير من نُحاس أو نحوه يُستعمل للغسيل. (لَأَمَهُ): جَمَعَهُ وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. (ظِئْرُهُ) وَهِيَ الْمُرْضِعَةُ غَيْرَ وَلَدِهَا، وَيُقَالُ أَيْضًا لِزَوْجِ الْمُرْضِعَةِ: ظِئْرٌ. (مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ) أَيْ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ. (الْمِخْيَطِ) الإِبْرَةُ.

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٠٦. (ش): رواه البخاري من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ) السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مُنَوَّرٌ فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ مَا يُخَالِفُ مَا يُنَوِّرُ بِهِ قَلْبَهُ عَظُمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ وَالْحِكْمَةُ فِي التَّمْثِيلِ بِالْجَبَلِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ قَدْ يَحْصُلُ التَّسَبُّبُ إِلَى النَّجَاةِ مِنْهُ بِخِلَافِ الْجَبَلِ إِذَا سَقَطَ عَلَى الشَّخْصِ لَا يَنْجُو مِنْهُ عَادَةً وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ لِقُوَّةِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَا يَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ بِسَبَبِهَا وَهَذَا شَأْنُ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ دَائِمُ الْخَوْفِ وَالْمُرَاقَبَةِ يَسْتَصْغِرُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ ويخشى من صَغِير عمله السيئ (وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ) أَيْ ذَنْبُهُ سَهْلٌ عِنْدَهُ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ كَبِيرُ ضَرَرٍ كَمَا أَنَّ ضَرَرَ الذُّبَابِ عِنْدَهُ سَهْلٌ وَكَذَا دَفْعُهُ عَنْهُ. (فَقَالَ بِهِ هَكَذَا) أَيْ نَحَّاهُ بِيَدِهِ أَوْ دَفَعَهُ هُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ. [فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥)].

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٢. (ش): رواه ابن حبان، وابْنُ جَرِيرٍ الطبري وابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تفسيريهما» وضعفه الألباني.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٨٨.

كما قال حسان بن ثابت:

وَضَمَّ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ[1]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج، وبعد الشدة يكون المخرج قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ كما عدَّد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيسًا له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، وكأن الله تعالى يقول: إنَّ الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليلة، سينصُرك عليهم، ويُظهِر أمرك، ويبدّل لك هذا العُسر بيُسرٍ قريب، ولذلك كرره مبالغةً فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر وفي الحديث «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»[2] ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي فإذا فرغت يا محمد من دعوة الخلق، فاجتهد في عبادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعِبْ نفسك في طلب الآخرة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي اجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية قال ابن كثير: المعنى إذا فرغْتَ من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعْتَ علائقها، فانصَبْ إلى العبادة، وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلِصْ لربِّك النيةَ والرغبة[3].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ..﴾ إلخ.

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ شبَّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسرًا كبيرًا.

٤ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿يُسْرًا﴾ و ﴿ٱلْعُسْرِ﴾.

٥ - تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ويسمى هذا بالإطناب.

٦ - السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ ومثلها ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشرح»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٢.
(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي. (ش): ضعفه الذهبي والألباني.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٣

سُورَةُ التِّينِ ٩٥ ٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التين مكية، وهي تعالج موضوعين بارزين هما:

الأول: تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

الثاني: موضوع الإيمان بالحساب والجزاء.

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، وهي «بيت المقدس» و «جبل الطور» و «مكة المكرمة» على أن الله تعالى كرم الإنسان، فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾.

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين، في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؟ وفيها تقرير للجزاء، وإثبات للمعاد.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

اللغة: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ومعنى ﴿سِينِينَ﴾ المبارك ﴿تَقۡوِيمٖ﴾ تعديل يقال: قوَّم العودَ أي عدَّله وجعله مستقيمًا، وقوَّمه الدهرُ جعله متزنًا حصيف الرأي والعقل[1] ﴿مَمۡنُونٖ﴾ مقطوع ﴿بِٱلدِّينِ﴾ الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى، ومنه الحديث الشريف « كَمَا تَدِينُ تُدَانُ »[2] أي كما تفعل تُجازَى.

التفسير: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ هذا قسمٌ أي أُقسمُ بالتين والزيتون لبركتِهما وعظيم منفعتِهما[3].

---

(١) (ش): حَصيف: ذكيّ حكيم. رأيٌ حصيف: رأيٌ مُحكَمٌ لا خلَل فيه.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): تقدم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يُقْسِمَ إِلاَّ بِالْخَالِقِ.

قال ابن عباس: هو تِينُكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت[١] وقال عكرمة: أقسم الله تعالى بمنابت التين والزيتون، فإن التين ينبتُ كثيرًا بدمشق، والزيتون ببيت المقدس[٢].. وهو الأظهر، ويدل عليه أن الله تعالى عطَف عليه الأماكن «جبل الطور» و «البلد الأمين» فيكون قسَمًا بالبقاع المقدسة التي شرَّفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي وأُقسم بالجبل المبارك الذي كلَّم الله عليه موسى وهو «طور سيناء» ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك قال الخازن: سمي «سينين» و «سيناء» لحسنه ولكونه مباركًا، وكلُّ جبل فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين وسيناء[٣] ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي وأقسم بالبلد الأمين «مكة المكرمة» التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ! قال الألوسي: هذه أقْسامٌ[٤] ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إليه الكثيرون، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة حماها الله بلا خوف، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويقال له: طور سيناء، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان: أحدهما بدمشق، والثاني ببيت المقدس، وعنى بالتين والزيتون منبتيهما، وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد، والغرض من القسم بتلك الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين[٥] وقال ابن كثير: ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاث، بعث الله في كل منها نبيًا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول: محلة التين والزيتون وهيَ «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام. والثاني: طور سينين وهو «طور سيناء» الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا، وهو الذي أرسل الله فيه محمدًا ﷺ، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة «جاء اللهُ من طور سيناء الجبل الذي كلم الله عليه موسى وأشرق من ساعير يعني جبل المقدس الذي بعث الله منه عيسى واستعلن من جبال فاران يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا ﷺ» فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما[٦]، وجواب القسم هو قوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفًا بأجمل وأكمل الصفات، من حُسْن الصورة،

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٠.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٩.
(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٦٦.
(٤) (ش): أقْسامٌ: جمع قَسَم.
(٥) «روح المعاني» ٣٠/ ١٧٣ بشيء من الإيجاز.
(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٤.

وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مُزَيَّنًا بالعلم والفهم، والعقل والتمييز، والنطق والأدب، قال مجاهد: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أحسن صورة، وأبدع خلق[١] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه، حين لم يشكر نِعمةَ خلْقِنا له في أحسن صورة، ولم يستعمِل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا، فلذلك سنرده إلى أسفل سافلين وهي جهنم قال مجاهد والحسن: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أسفل دركات النار وقال الضحاك: أي رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة[٢] قال الألوسي: والمتبادرُ من السياقِ الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها[٣] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح[٤] ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي فلهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم، وهو الجنة دار المتقين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الانسان، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين؟ فإن خلق الإنسان من نطفة، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة، من أوضح الدلائل على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على البعث والجزاء، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين؟ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع، بأعدل العادلين حكمًا وقضاءً وفصلًا بين العباد؟ وفي الحديث «أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». ويُرْوَى عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»[٥].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي بإطلاق الحَالّ وإرادة المحلّ[٦].

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ أراد موضِعهما الشام وبيت المقدس على القول الراجح.

٢ - الطباق بين ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وبين ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

---

(١) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٥٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٥. (ش): قد استَثْنَت الآياتُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات من أن يُرَدُّوا أَسْفَلَ سَافِلِينَ، ومِنهم مَن يصيبه الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٧٦.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٥) (ش): المحلّ: المكان، والحالّ: الموجود بالمكان.

(٦) رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

٤ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾؟

٥ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟

٦ - السجع المرصَّع ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ.. أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ.. بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ والله أعلم.

لطيفَة: ذكر الإمام القرطبي: أن «عيسى الهاشمي» كان يحب زوجته حبا شديدًا، فقال لها يومًا: أنت طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسن من القمر! فاحتجبت عنه وقالت: طلقتني، فحزن حزنًا شديدًا وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلّقت، إلا رجلًا واحدًا من أصحاب أبي حنيفة فقد بقى ساكتًا فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل يا أمير المؤمنين: يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، ورَدَّها إلى زوجها.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ العَلَقِ ٩٦ ١٩

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى «سورة اقرأ» مكية، وهي تعالج القضايا الآتية:

أولًا: موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثانيًا: موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله.

ثالثًا: قصة الشقي «أبي جهل» ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة[1].

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم ﷺ بإنزاله هذا القرآن «المعجزة الخالدة» وتذكيره بأول النعماء[2] وهو يتعبد ربه بغار حراء، حيث تنزَّل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله[3]، لا أن يجحد النعماء، وذكرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾.

* ثم تناولت قصة «أبي جهل» فرعون هذه الأمة، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدده، وينهاه عن الصلاة، انتصارًا للأوثان والأصنام ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر، بأشد العقاب إذا استمر على ضلاله وطغيانه، كما أمرت الرسول الكريم ﷺ بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ إلى ختام السورة ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾.

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم، وختمت بالصلاة والعبادة، ليقترن العلم بالعمل، ويتناسق البدء مع الختام.

---

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي).

انْتَهَرَهُ: زجره بعُنف وأغضبه.

(٢) النَّعْماء: النعمة.

(٣) (ش): الإفضال: الإنعام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ
﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ
لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾

اللغة: ﴿عَلَقٍ﴾ جمع عَلَقة وهي الدَّمُ الجامد، سُمِّيَت علقة لأنها تَعْلَق بالرحم [١] ﴿لَنَسْفَعًا﴾ السَّفع: الجذب بشدة وقوة قال أهل اللغة: سفعت بالشيء إذا قبضتُ عليه وجذبته جذبًا شديدًا، وسفع بناصية فرسه جذبها قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصِّيَاحُ رَأَيْتَهُمْ ... مِنْ بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعِ [٢]

﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ شَعر مُقَدَّم الرأس ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ مأخوذ من الزَّبن وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه قال الشاعر:

مَطَاعِيمُ فِي الْقُصْوَى
مَطَاعِينُ فِي الْوَغَى ... زَبَانِيَةٌ غُلْبٌ عِظَامٌ حُلُومُهَا [٣]

رُوِي «أن أبا جهل قال لأصحابه يومًا: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟- يريد هل يصلي ويسجد أمامكم- قالوا: نعم، فقال: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فجاء يومًا فوجد رسول الله ﷺ يصلي، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا». فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿أَرَأَيْتَ الذي ينهى عَبْدًا إِذَا صلى﴾ إلى آخر السورة»[٤].

---

(١) (ش): علِق: تعلَّق. يقال: علِق الشَّوكُ بثوبه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٩١. (ش): لجَم/ ألجم الفرسَ: ألبسه اللِّجام. وضَع في فمها حديدةً لقيادتها. المُهْر: ولد الفرس. والسافع: المُمْسك برأس فرسه ليركبه بسرعة من غير لجام.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ١٨٨. (ش): مَطاعِيمُ: جمع مِطعام: كثير الإطعام، كثير الأضياف. القُصْوَى: الغايَةُ البعيدةُ، غاية ما يمكن بلوغه من الشَّيء. مَطاعين: جَمْعُ مِطْعانٍ: كَثِير الطَّعْن. غُلْب: جمع أغْلَب وهو الغليظ الرقبة. والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها. والحُلوم: جمع الحِلم وهو العقْل.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وانظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٨، والخازن ٤/ ٢٧٠. (ش): وروى البخاري بعضه.
(هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ) أَيْ يَسْجُدُ وَيُلْصِقُ وَجْهَهُ بِالْعَفَرِ وَهُوَ التُّرَابُ. (فَجِئَهُمْ) فَجَأَهُمْ، أي إن ذلك حدث في وقت لم يتوقَّعوه فيه. (يَنْكِصُ): يَرجعُ عَلَى عَقِبَيْهِ، يَمْشِي عَلَى وَرَائِهِ. (الهَوْل): فَزَع ورهبة. والجمع أهوال.

التفسير: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ هـذا أول خطـاب إلهي إلـى النبي ﷺ وفيـه دعوةٌ إلى القراءة والكتابة والعلم، لأنه شـعار دين الإسـلام، أي: اقرأ يا محمد القرآن مُبتَدِئًا ومسـتعينًا باسـم ربك الجليل، الذي خلـق المخلوقات، وأوْجَد جميع العوالم، ثم فسَّـر الخلق تفخيمًا لشـأن الإنسـان فقـال ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي خلق هـذا الإنسـان البديع الشـكل، الذي هو أشـرف المخلوقـات من العلقة - وهـي الدودة الصغيـرة [1]- وقد أثبت الطـبُّ الحديث أن المنيّ الذي خلق منه الإنسـان مُحتوٍ على حيواناتٍ وديدان صغيرة لا تُرى بالعين، وإنما ترى بالمجهـر الدقيـق (الميكرسـكوب) وأن لها رأسًـا وذنبًا، فتبـارك الله أحسـن الخالقين[2] قال القرطبي: خصَّ الإنسـان بالذكر تشـريفًا لـه، والعلقةُ قطعة من دمٍ رَطْب، سُـميت بذلك لأنها تَعْلق لرطوبتها بما تمُرُّ عليه[3] ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم، الذي لا يسـاويه ولا يدانيـه كريـم، وقد دلَّ على كمـال كرمه أنه علَّم العباد ما لـم يعلموا ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ أي الـذي علَّـم الخـطَّ والكتابة بالقلم، وعلَّم البشـر ما لم يكونوا يعرفونـه من العلـوم والمعارف، فنقلهم من ظلمـة الجهل إلى نور العلم، فكما علَّم سـبحانه بواسـطة الكتابة بالقلم، فإنه يعَلِّمك بلا واسـطة وإن كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب قال القرطبي: نبَّـه تعالـى على فضل علـم الكتابة، لما فيه مـن المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسـان، وما دُوِّنَـت العلوم ولا قُيِّدَت الحِكَـم، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأولين ومقالاتهم، ولا كتبُ الله المنزَّلة إلا بالكتابـة، ولولاها ما اسـتقامت أمور الدنيـا والدين[4]. وهذه الآيـات الخمس هي أول ما تنـزَّل مـن القرآن، كما ثبـت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهـو يتعبَّد بغار حِراء، فَقَـالَ: «اقْـرَأْ». فَقَالَ: « مَا أَنَا بِقَـارِئٍ » [5].. إلخ. قال ابن كثير: أول شـيء نزل من القرآن هذه الآيـات المبـاركات، وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها

---

(١) **(ش):** أي خُلِقَ من شيء يُشبه الدودة الصغيرة، والعلَقة في اللغة: واحدة العلق، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد، وعلى دودة في المياه الراكدة تعْلَق بالجسد فتمتص دمه، وعلى كل ما يعْلَق بغيره أو يُعَلَّق عليه، ويبدأُ طور العلقة بعد أربعين يومًا من بدءِ الحمل، كما جاءَ في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم. وفي طور العلقة يصبح الجنين كالدودة العالقة بالرحم. وهذه العلقة جامدة في طبيعتها، لونها أحمر بسواد، تتعلق بجدار الرحم، تمتص منه غذاءها كما يمتص العَلَقُ من الدابة غذاءَه.فالعلق في لغة العرب على ثلاثة معانٍ: الدم، والشيء الذي يعْلَق بغيره، وما يقوم على غيره، وهذه المعاني غير متناقضة ويشملها كلها حال الجنين.

(٢) اقرأ كتاب «الطب محرابُ الإيمان» ٢/ ٥٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٠.

(٥) أخرج الشيخان عن عائشة قالت: « أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، فَكَانَ يَأْتِي غَارَ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ- أَي يَتَعَبَّدُ- فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ» الحديث.

التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أنْ علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به «آدم» على الملائكة[١].. ثم أخبر تعالى عن سبب بَطَر الإنسان وطغيانه[٢] فقال ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي حقًّا إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان، واتباع هوى النفس، ويستكبر على ربه عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي من أجل أن رأى نفسه غنيًّا، وأصبح ذا ثروة ومال أشِر وبَطِرَ[٣]، ثم توَعَّده وتَهَدَّده بقوله ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي إنَّ إلى ربك أيها الإنسانُ المرجع والمصير فيجازيك على أعمالك، وفي الآية تهديدٌ وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طَاغٍ متكبر قال المفسرون: نزلت هذه الآيات إلى آخر السورة في «أبي جهل»[٤] بعد نزول صدر السورة بمدة طويلة، وذلك أن أبا جهل كان يطغى بكثرة ماله، ويبالغ في عداوة الرسول ﷺ -والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب-[٥] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تعَجُّبٌ من حال ذلك الشقي الفاجر أي أَخْبِرني يا محمد عن ذلك المجرم الأثيم، الذي ينهى عبدًا من عباد الله عن الصلاة، ما أسخفَ عقله، وما أشنع فعله! قال أبو السعود: هذه الآية تقبيحٌ وتشنيعٌ لحال الطاغي وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضى منها العَجَب[٦]، وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد ﷺ، وأن الذي نهاه هو اللعين «أبو جهل» حيث قال: لئن رأيتُ محمدًا يصلي لأطأن على عنقه[٧] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلي وهو النبي ﷺ الذي تنهاه عن الصلاة صالحًا مهتديًا، على الطريقة المستقيمة في قوله وفعله ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي أو كان آمرًا بالإخلاص والتوحيد، داعيًا إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه[٨] فما أبْلَهك[٩] أيها الغَبِيُّ الذي تنهى من هذه أوصافه: عبدٌ لله مطيعٌ مُهتدٍ منيبٌ، داعٍ إلى الهدى والرشاد؟ وما أعجب هذا! ثم عاد لخطاب الرسول ﷺ فقال ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أخبرني يا محمد إن كذَّب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٦.

(٢) (ش): بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(٣) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرحِ ونشِط.

(٤) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٥) انظر «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٣٦، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٤.

(٧) انظر سبب النزول المتقدم.

(٨) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي، وهو ضعيف.

(٩) (ش): بلِهَ الشَّخصُ، بَلَهًا وبَلاهَةً، فهو أَبْلَه: ضَعُفَ عَقْلُه وغلبت عليه الغَفْلَةُ وقلَّ تمييزُه.

ألـم يعلم ذلك الشـقي أن الله مُطَّلع علـى أحواله، مُراقِب لأفعاله، وسـيجازيه عليها﴿ ويْلَه ما أجْهَلَـه وأغْبَـاه! ثم ردَعه وزجَره فقـال ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجـر «أبو جهل» عن غيـه وضلاله، فوالله لئـن لم ينته عن أذى الرسـول، ويكف عمَّا هو عليه مـن الكفر والضلال ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنأخذنه بناصيته مقدم شعر الرأس فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيهـا ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ، فاجـرٌ، كثير الذنوب والإجرام قال في التسـهيل: ووصفهـا بالكـذب والخطيئة مجازٌ، والـكاذب الخاطـىء في الحقيقة صاحبها، والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدًا، والمخطئ الذي يفعله بدون قصد[1] ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي فلْيَدْع أهلَ ناديه[2] ولْيَسـتنْصِر بهم ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي سـندعو خَزَنة جهنم، الملائكة الغلاظ الشـداد، روي «أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد، فأغلظ له رسول الله ﷺ القول، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؛ والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديًا فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾» قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب مِن ساعته[3]

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي ليرتـدع هـذا الفاجر، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ وأي وواظب على سجودك وصلاتك، وتقرَّب بذلك إلى ربك وفي الحديث «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[4].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطنـاب بتكرار الفعل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ ثم قـال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

٢ - الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿عَلَقٍ﴾.

٣ - طباق السلب ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٤ - الكنايـة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا﴾ كنَّـى بالعبـد عن رسـول الله ﷺ ولـم يقل: ينهاك تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره.

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٠٩.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٣٨): «﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أَيْ: قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٧. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ -ﷺ- فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الله». (صحيح، رواه أحمد والترمذي). انْتَهَرَهُ: زجره بعُنف وأغضبه.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه».

٥ - الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؟ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾؟

٦ - المجاز العقلي ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي كاذب صاحبها خاطئ فأسند الكذب إليها مجازًا.

٧ - السجع المرصَّع مثل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة العلق»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ القَدْرِ ٩٧ ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة القدر مكية، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية، والنفحات الربانية، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين، تكريمًا لنزول القرآن المبين، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، هي خير عند الله من ألف شهر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ

التفسير: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف قال المفسرون: سميت ليلة القدر لعِظَمِها وقدرها وشرفها، والمرادُ بإنزال القرآن إنزالهُ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفَصَّلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ[1] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف؟ قال الخازن: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال: أي شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها؟[2] ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه فقال تعالى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خيرٌ من ألف شهر، لما اختصت به من شرف إنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون: العمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقد روي أن رجلًا لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله والمسلمون من ذلك، وتمنى رسول الله ﷺ لأُمته فقال « يا رب،

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٩، والقرطبي ١٩/ ١٣٠. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: « نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وابن كثير).

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٧٥.

جعلت أُمتي أقصر الأمم أعمارًا، وأقلها أعمالًا فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ليلةُ القدر خيرٌ لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها ذلك الرجل»[1] قال مجاهد: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وهذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي تَنَزَّل الملائكةُ[2] وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمرٍ قدَّره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها، والوجه الثالث قوله تعالى ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر، تسلّم فيها الملائكة على المؤمنين، ولا يُقدّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات، زيادة في الاعتناء بشأنها، وتفخيمًا لأمرها.

٢ - الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾؟

٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة ليُنَبِّه على جلالة قدره.

٤ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿ٱلْقَدْرِ، شَهْرٍ، أَمْرٍ، ٱلْفَجْرِ﴾ وهو من المحسنات البديعية اللفظية والله أعلم.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة القدر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) روى هذا عن ابن عباس ومجاهد. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إسرائيل لَبس السلاح في سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ، فَعَجب الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الَّتِي لَبِسَ ذَلِكَ الرَّجُلُ السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ (رواه ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بإسناد ضعيف).
وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُرِيَ أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ فتقالها، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ، أَنْ لاَ يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمْرِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. (رواه مالك في الموطأ بإسناد ضعيف).

(٢) (ش): أي تَتَنَزَّل.

سُورَةُ البَيِّنَةِ ٩٨ ٨

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة البينة وتسمى ﴿سورة لم يكن﴾ مدنية، وهي تعالج القضايا الآتية:

١- موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ.

٢- موضوع إخلاص العبادة لله جل وعلا.

٣- مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن «اليهود والنصارى» وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ، بعد أن بان لهم الحقُّ وسطعت أنوارهن وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته، وكفروا وعاندوا.

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان، وهو « إخلاص العبادة» لله العلي الكبير، الذي أمر به جميع أهل الأديان، وإفراده جلَّ وعلا بالذكر، والقصد، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال، خالصة لوجهه الكريم.

* كما تحدثت عن مصير أهل الإجرام -شر البرية- من أهل الكتاب والمشركين، وخلودهم في نار الجحيم، وعن مصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية -خير البرية- وخلودهم في جنات النعيم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ

اللغة: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مُنتَهين زائلين، وأصلُ الفَكّ: الفَتحُ ومنه فَكُّ الكتاب، وفَكُّ الخَلْخَال[1]

(١) (ش): الخَلْخال: حِلْية من فِضَّة كالسِّوار تُحَلِّي المرأة بها رِجْليها، تُلْبس حول الكعب.

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، والدلالة القاطعة ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مُنَزَّهة عن الباطل والشبهات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة عادلة ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق، وأصل الحَنَف: الميلُ ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الخلق من قولهم: برأ اللهُ الخلق، ومنه البارئ أي الخالق.

التفسير: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود، الذين كفروا بالله وبرسوله، ثم بيَّنهم بقوله ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب، ومن المشركين عَبَدةِ الأوثان والأصنام ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي مُنفَصلين ومُنتَهِين عما هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة[1]، وهي بعثة محمد ﷺ ولهذا فسَّرها بقوله ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي هذه البيّنة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي يقرأ عليهم صحفًا منزَّهة عن الباطل عن ظهر قلب، لأن النبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب، لأنه عليه السلام كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ[2] قال ابن عباس: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الزور، والشك والنفاق، والضلالة وقال قتادة: مطهَّرة عن الباطل[3] ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي فيها أحكام قيِّمة لا عِوَج فيها، تُبيِّن الحق من الباطل قال الصاوي: المراد بالصحف القَراطيس[4] التي يكتب فيها القرآن، والمراد بالكتب الأحكام المكتوبة فيها، وإنما قال ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة[5].. ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على صدق رسالته، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم قال أبو السعود: والآية مَسُوقَةٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة[6]، وتغليظ جناياتهم، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتبيّن الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾[7]

---

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا؟ لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين فبيَّن لهم ضلالتهم وشِرْكَهم وما كانوا عليه من الجاهلية ودعاهم إلى الإيمان فآمن مِنهم مَن آمن، واهتدى مِنهم مَن اهتدى، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ولم يكونوا منفصلين عن كُفرهم قبل بعثه ﷺ إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين: المشركين وأهل الكتاب.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٩/ ١٤٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) (ش): قُرْطاس/ قِرْطاس: صحيفة، ما يُكتَب فيه من ورق وغيره مُفرَّقًا.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٢.

(٦) (ش): أي إن الغرض منها التشنيع على أهل الكتاب خاصة. يُقال ساقَ الحديثَ: سردَه، أورده بسهولة وسلاسة. ساق القصّةَ: قصّها.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٧.

[آل عمران: ١٩] وقال في التسهيل: أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق، وإنما خصَّ أهل الكتاب هنا بالذكر، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته، بما يجدون في كتبهم من ذكره[١] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي والحال أنهم ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده، مخلصين العبادة جلّ وعلا، ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١] ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم، دين الحنيفية السمحة، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس قال الصاوي: وخصَّ الصلاة والزكاة لشرفهما[٢] ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هو دين الملة المستقيمة دين الإسلام فلماذا لا يدخلون فيه؟ ثم ذكر تعالى مآل كل من الآبرار والأشرار، في دار الجزاء والقرار فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي إنَّ الذين كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد عليه السلام، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم، ماكثين فيها أبدًا لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق قال الإمام الفخر: فإن قيل: لم ذكر ﴿كَفَرُواْ﴾ بلفظ الفعل، ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم وُلِدوا على عبادة الأوثان، وإنكار الحشر والقيامة[٣]، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر أي شرٌّ من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشرٌّ من قطاع الطريق، لأنهم قطعوا طريق الحق عن الخلق[٤]، ولما ذكر مَقَرَّ الأشقياء، ذكر بعده مَقَرَّ السُّعداء فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢١٢.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٤٣.

(٣) (ش): هم وُلِدوا على الفطرة ولكن آباءهم هم الذين أضلوهم. قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٣١/ ٤٩.

(٥) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي هـم خير الخليقة التي خلقهـا الله وبرَأها[١] ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم في الآخـرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي جنـات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنـة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون منها، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رَضِيَ اللهُ عَنْهـم بمـا قدموا في الدنيا مـن الطاعات وفعـل الصالحات، ورضوا عنه بمـا أعطاهم من الخيـرات والكرامـات ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسـن لمن خاف الله واتقاه، وانتهى عن معصية مولاه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإجمال ثم التفصيل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ثم فصلها بقوله ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

٢ - الطباق بين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

٣ - الاسـتعارة التصريحية ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ لفظة مطهرة فيها اسـتعارة حيث شـبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.

٤ - المقابلـة بيـن نعيم الأبرار وعـذاب الفجـار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ..﴾ الآية وبين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٥ - توافـق الفواصـل وهـو من المحسـنات البديعيـة مثـل ﴿ٱلْبَيِّنَةُ، قَيِّمَةٌ، خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ، شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ونحو ذلك.

تنبيـه: الإخـلاص هو لبُّ العبـادة وقد جاء في الحديث القدسـي: «أَنَا أَغْنَى الشُّـرَكَاءِ عَنِ الشِّـرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[٢] وقد قسم العلماء الأعمال إلى ثلاثة أقسـام: «مأمورات، ومنهيـات، ومباحات» فأما المأمـورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعملـه وجه الله، وإن كانت النية لغير وجه الله، فالعمل رياءٌ محْضٌ مردود، وأما المنهيات فإن ترَكهـا بـدون نية خرَج عن عهدتها، ولم يكـن له أجر في ترْكها، وإن ترَكهـا ابتغاء وجه الله كان مأجورًا على ترْكها، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإنْ فَعَلها بغير نية لم يكـن بهـا أجر، وإنْ فَعَلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قُربَةً إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام[٣].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البينة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): برَأ اللهُ الخلقَ: خَلَقَهم؛ أوجدهم من العدم.

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) (ش): قال ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). فِي فِي امْرَأَتِكَ: فِي فَمِ امْرَأَتِكَ.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ ٩٩ ٨

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ[1]، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

اللغة: ﴿زُلْزِلَتِ﴾ حُرِّكَتْ تحريكًا عنيفًا ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الموتى الذين في جوفها، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧] قال الأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها[2] ﴿يَصْدُرُ﴾ ينصرف ويخرج، والصُّدور ضد الوُرُود، فالواردُ الآتِي، والصادِر المُنصَرف ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شَتّ يقال: ذهبوا أشتاتًا، أي: متفرقين.

التفسير: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حُرِّكَت الأرض تحريكًا عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، واهتزت بمَن عليها اهتزازًا يقطع القلوب ويُفزع الألباب كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] قال المفسرون: إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تهويلًا كأنه يقول: الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها، وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحريكًا متتابعًا، وتضطرب بمَن عليها، ولا تسكن

(١) (ش): يَنْدكّ: يُهدَم حتى يُسَوَّى بالأرض. الصَّرْح: القَصر العالي. ينهار: يسقط ويَنْهدم. راسخ: ثابت.
(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ٥٨.

حتى تُلقِي ما على ظهرها مِن جبلٍ وشجرٍ وبناءٍ وقِلَاع[١] ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها من الكنوز والموتى قال ابن عباس: أخرجت موتاها وقال منذر بن سعيد: أخرجت كنوزها وموتاها[٢] وفي الحديث «تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ. وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي. وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»[٣] ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؟ أي وقال الإنسان: ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفَظَت ما في بطنها[٤]؟! يقول ذلك دهشةً وتعجُّبًا من تلك الحالة الفظيعة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يوم القيامة تتحدث الأرض وتخبر بما عُمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمَةٍ بما عمل على ظَهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»[٥] وفي الحديث: «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحدٍ عامل عليها خيرًا أو شرًّا إلا وهي مخبرة به»[٦] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن الله جلت عظمته أمرها بذلك، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها، فهي تشكو العاصي وتشْهَد عليه، وتشكر المطيع وتُثْني عليه، والله على كل شيء قدير ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب، وينصرفون متفرقين فِرقًا فِرقًا، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر[٧] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ أي فمَن يفعل مِن الخير زِنَةَ ذرةٍ من التراب[٨]، يجِدْه في صحيفته يوم القيامة ويَلْقَ جزاءه عليه.. قال الكلبي: الذَّرةُ أصغرُ النمل وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكلُّ واحد مما

---

(١) انظر «التسهيل» ٤/ ٢١٣، و«الخازن» ٤/ ٢٨٠. (ش): قِلَاع: جمع قَلْعَة: حِصْن مَنيع على مكان مرتفع.

(٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): الْفَلْذُ: الْقِطْعَةُ مِنْ كَبِدِ الْبَعِيرِ أو الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ. وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: التَّشْبِيهُ أَيْ تُخْرِجُ مَا فِي جَوْفِهَا مِنَ الْقِطَعِ الْمَدْفُونَةِ فِيهَا. وَالْأُسْطُوَانُ جَمْعُ أُسْطُوَانَةٍ، وَهِيَ السَّارِيَةُ وَالْعَمُودُ، وَشَبَّهَهُ بالأُسْطُوَان لعِظَمه وكَثْرَتِهِ.

(٤) (ش): لفَظَت ما في بطنها: أخرجَتْ ما في بطنها.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): ورواه أحمد وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٦) أخرجه الطبراني في معجمه. (ش): ضعفه الألباني

(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٦١): «﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أَيْ: لِيَعْمَلُوا وَيُجَازُوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ».

(٨) (ش): زِنة: وَزْن وقَدْر.

لصق به من التراب ذرة[١] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أي ومن يفعل من الشر زِنَةَ ذَرَّةٍ من التراب، يجِدْه كذلك ويلْقَ جزاءه عليه. قال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٢] [النساء: ٤٠].

البَلاَغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتهويل والتفظيع ﴿زِلْزَالَهَا﴾.

٢ - الإظهار في مقام الإضمار ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لزيادة التقرير والتوكيد.

٣ - الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

٤ - جناس الاشتقاق ﴿زُلْزِلَتِ .. زِلْزَالَهَا﴾.

٥ - المقابلة بين ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ..﴾ وبين ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ..﴾.

٦ - السجع المرصَّع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل ﴿زِلْزَالَهَا، أَثْقَالَهَا، أَوْحَىٰ لَهَا، أَخْبَارَهَا، مَا لَهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

فَائِدَة: سمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..﴾ الجامعة الفاذَّة حين سئل عن زكاة الحُمُر. فقال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلاَّ هَذِهِ الآيَةَ الْفَاذَّةَ الْجَامِعَةَ»: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أخرجه البخاري[٣].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «التفسير الكبير» ٣١/ ٦١.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٥٠.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الْفَاذَّةِ): الْقَلِيلَةُ النَّظِيرِ. (الْجَامِعَة): الْعَامَّةُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ.

سُورَةُ العَادِيَاتِ ١٠٠ ١١

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة العاديات مكية، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله، حين تغير على الأعداء، فيسمع لها عند عدوها [١] بسرعة صوتٌ شديد، وتقدح بحوافرها [٢] الحجارة فيتطاير منها النار، وتثير التراب والغبار، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغُزاة -إظهارًا لشرفها وفضلها عند الله- على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه [٣]، جحود لآلائه وفيوض نعمائه، وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزء، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه، وإنما ينفع العمل الصالح.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ

اللغة: ﴿ضَبْحًا﴾ الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدَتْ [٤]

قال عنترة:

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ ... فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا [٥]

﴿فَأَثَرْنَ﴾ هيَّجْنَ ﴿نَقْعًا﴾ النَّقعُ: الغُبار ﴿لَكَنُودٌ﴾ كَفُور جَحُود لنعمة الله، من كَند النعمة إذا كفَرها ولم يشكُرها قال الشاعر:

كَنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ ... كَنُودًا لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ يَبْعُدُ [٦]

﴿بُعْثِرَ﴾ أُثِيرَ وقُلِبَ، من بَعثَرْت المتاع إذا جعَلْت أسفلَه أعلاه.

---

(١) (ش): عدَا الحصانُ، عَدْوًا: جرَى، ركض، سار بخطًى متباعدة، قفز قفزاتٍ متتابعةً.

(٢) (ش): قدَح النَّارَ/ قدَح النارَ من الزَّنْد: أخرجها منه، أشعلها بالاحتكاك. والزَّنْدُ: العودُ الأعلى الذي تُقدَح به النَّارُ، والأسفل هو الزَّنْدَ.

(٣) (ش): جَحَدَ الأَمْرَ: أنكرهُ مَعَ علمه بِهِ. فُيوض نَعمَائه: كثرةُ نِعَمه.

(٤) (ش): عدَا الحصانُ، عَدْوًا: جرَى، ركض، سار بخطًى متباعدة، قفز قفزاتٍ متتابعةً.

(٥) «الألوسي» ٣٠/ ٢١٥. (ش): تَكْدَحُ: تُجْهِدَ نَفْسَها.

(٦) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٠.

التفسير: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي أُقسمُ بخيل المجاهدين المسرعات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبحُ قال ابن عباس: الخيل إذا عدت قالت: أُحْ، أُحْ فذلك ضبْحُها. قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبح ضبحًا وهو صوت أنفاسها عند عدوها[1] ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس قال الألوسي: هذا هو المعتادُ في الغارات، كانوا يعدون ليلًا لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحًا ليرَوْا ما يأتُون وما يَذَرُون[2] ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو، في الموضع الذي أغرن به ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.. أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيمًا للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تُسرع على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها، وتُغير على الأعداء وقت الصباح، فتُثير الغبار، وتتوسط العدو فتُصيبه بالرعب والفزع، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي إن الإنسان لجاحد لنِعَم ربه، شديد الكفران قال ابن عباس: جاحدٌ لنعم الله وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم[3] ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإن الإنسان لَشاهدٌ على كُنُوده، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي وإنه لَشديدُ الحُب للمال حريصٌ على جَمْعه، وهو لِحُبّ عبادة الله وشكر نعمه ضعيفٌ متقَاعِس[4] ثم بعد أن عدَّد عليه قبائح أفعاله خَوَّفه فقال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إذا أُثِير ما في القبور وأُخرِج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي وجُمِع وأُبرِز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يُسِرُّونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي إنَّ ربهم لعَالِمٌ بجميع ما كانوا يصنعون، ومُجَازِيهم عليه أوفر الجزاء، وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم يوم القيامة لأنه يوم الجزاء، بقَصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بإنَّ واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

---

(١) «أبو السعود» ٥/ ٢٨٠.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ٢١٥. (ش): أي ما يفعلون وما لا يفعلون.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٠.

(٤) (ش): متقَاعِس: مُهمِل، مُتكاسِل، غير مُهتم.

٢ - الجناس غير التام بين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿ضَبْحًا﴾ و ﴿صُبْحًا﴾.

٣ - الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾؟

٤ - التضمين ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ضمَّن لفظ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم.

٥ - توافق الفواصل مثل ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلخ. ويسمى «السجع المرصَّع» وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ القَارِعَةِ ١٠١

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة القارعة مكية، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم.

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث[1] المتطاير في الهواء، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهًا على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف[2]، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ

اللغة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تَقْرَع الخلائقَ بأهوالها وأفزاعها، وأصلُ القَرْع الضرْب بشدة وقوة، تقول العرب: قرَعَتْهم القارعة وفَقَرتهم الفَاقِرة، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر المتفرق ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف ذو الألوان أو المصبوغ ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأنَّ الناس يهْوون بها، أي: يسقطون.

---

(١) (ش): «المُنبَثّ: المُنتَشر».

(٢) (ش): ندَف القطنَ: طرَقه وضرَبه بالمِنْدَف ليَرِقَّ ويزول تَلَبُّده. والمِنْدَف والمِنْدَفَة: خَشَبَةٌ يُطرَق بها القطنُ ليرِقَّ ويزولَ تلبُّده، أي: يزول تداخُلُه والتصاقُ بعضه ببعض.

التفسير: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي القيامة وأيُّ شيء هي القيامة؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال، ولا يبلغها وَهْمُ إنسان فهي أعظم من أن تُوصَف أو تُصَوَّر، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ أي أيُّ شيءٍ أعلَمَك ما شأن القارعة في هولها على النفوس؟ إنها تُفزع القلوب فحسب، بل تؤثّر في الأجرام العظيمة، فتؤثِّر في السموات بالإنشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدكّ والنسف، وفي الكواكب بالانْتِثَار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك[1] قال أبو السعود: سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع، ووَضْع الظاهر موضع الضمير ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[2] تأكيدًا للتهويل. والمعنى: أيُّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد[3].. وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيءٍ من أحوالها، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناسُ من قبورهم فَزِعين، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع والحيرة قال الرازي: شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، وفي آية أُخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهةٍ واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأُخرى، فدلَّ على أنهم إذا بُعثوا فَزِعوا، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء[4] الجراد يركب بعضه بعضًا، فكذلك الناس إذا بُعِثوا يمُوجُ بعضُهم في بعض[5] كالجراد والفراش كقوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩][6] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المَهُول[7] أي وتصير الجبال كالصوف المنتثر المتطاير، تتفرق أجزاؤها وتتطاير في الجو، حتى تكون كالصوف المتطاير عند النَّدْف[8] قال الصاوي: وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهًا على

---

(١) (ش): فتنشق السماء، ويختلّ نظامُها، وتُلَفُّ الشمس ويذهب ضَوْءُها، ويذهب ضوء القمر، وتُزَلزَل الأرض، وتُزال الجبال عن أماكنها فيجعلها الله هباءً منبثًا، وتتساقط الكواكب، وتتناثر النجوم، ويذهب نورها.

(٢) (ش): وَضْع الظاهر (القارعة) موضع الضمير (هي)، أي لم يقُل: ما هي؟ بل قال: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

(٣) «أبو السعود» ٥/ ٢٨١.

(٤) (ش): غَوْغاء: ضوضاء، صياح.

(٥) (ش): ماج القومُ: دخل بعضُهم في بعض.

(٦) «التفسير الكبير» ٣١/ ٧٢.

(٧) (ش): مَهُول: مُرعب، مُخيف.

(٨) (ش): ندَف القطنَ: طرَقه وضرَبه بالمِنْدَف ليَرِقَّ ويزول تَلَبُّده. والمِنْدَف والمِنْدَفَة: خَشَبَةٌ يُطرَق بها القطنُ ليرِقّ ويزول تلبُّدُه، أي: يزولَ تداخُلُه والتصاقُ بعضِه ببعض.

أن تلك القارعة أثَّرت في الجبال العظيمة الصلبة، حتى تصير كالصوف المنْدُوف مع كونها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب[1]!! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد فقال ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجَحَت موازين حسناتِه، وزادَتْ حسناتُه على سيئاتِه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي فهو في عيش هَنِيءٍ رغِيد سعيد، في جنان الخلد والنعيم[2] ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته، أو لم يكن له حسناتٌ يُعتدُّ بها ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي فمسْكَنه ومصيره نارُ جهنم يهوِي في قعرها، سمَّاها أُمًّا لأن الأم مأوى الولد ومفزعُه، فنار جهنم تُؤوِي هؤلاء المجرمين، كما يَأوِي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد إليها قال أبو السعود: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء النار، سميت بها لغاية عُمقها وبُعد مهواها، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفًا[3] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾؟ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسَّرها بقوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة، قد خرجت عن الحد المعهود، فإن حرارة أيِّ نارٍ إذا سُعرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم، أجارنا الله منها بفضله وكرمه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾؟

٢ - وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي: في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، ومثله ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي في تطايرها وخفة سَيْرها فيُسمَّى مرسلًا مجملًا.

٤ - المقابلة ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ثم قابلها بقوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥ - المجاز العقلي ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي راضٍ بها صاحبُها ففيه إسناد مجازي.

---

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٧.

(٢) (ش): رغُدَ/ رغِدَ العيشُ: اتَّسع ونَعُم وطاب.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٨٢، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يُطرَح فيها منكوسًا، والأول أظهر. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: « هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الوَجْبَة: صوتُ وقْع القدم على الأرض.

٦ - الاحتباك وهو أن يحذَف من كل نظير ما أثبته في الآخر، فقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ حذف من الأول (فأمه الجنة) وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية.

٧ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو واضح في السورة الكريمة.

تنبيه: الجمهور على أن الميزان حقيقي له كِفَّتان ولسان، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة، فتوضع في الميزان، فمن رجحت حسناته سُعِدَ، ومن رجحت سيئاته شَقِيَ، والله أعلم[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): أخبر الله أنه يضع الموازين لوَزْن الأعمال، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين. قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والميزان ميزان حقيقي، لا يقْدِر قدْرَه إلا الله تعالى، قَالَ ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟»، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه يوزن في الميزان ثلاثة: الأعمال، وصحائف الأعمال، والعامل نفسه.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ ١٠٢ ٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور.

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفًا للناس، وتنبيها لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها[1] ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدم صالح الأعمال.

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ

اللغة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ الإلهاء: الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى، وأصل اللهو الغفلةُ ثم شاع في كل شاغل قال الراغب: اللهو ما يشغلك عما يعني ويهمُّ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ القبور جمع مقبرة، والقبور جمع القبر قال الشاعر:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ

التفسير: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودُفِنتُم في المقابر، والجملةُ خبرٌ يراد به الوعظ والتوبيخ قال القرطبي: المعنى شغلكم المباهاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودفنتم في المقابر[2] ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون

---

(١) (ش): جازَ الموضعَ/ جازَ بالموضع: سلَكَه وترَكه خلفه، سارَ فيه وقطعه.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٨، وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغَلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادَى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر وصِرتُم مِن أهلها.

عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعايَنْتُم أهواله وشدائده قال ابن عباس: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي في الآخرة إذا حَلَّ بكم العذاب[1] ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي ارتَدِعوا وانزجِروا فلو علمتُم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُدِعتُم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[2] الحديث. قال في التسهيل: وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ تقديره: لو تعلمون لازدُجِرتُم واستعدَدتُم للآخرة، وإنما حذف لِقَصْد التهويل، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله[3] كقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ أي أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانًا ويقينًا قال الألوسي: هذا جواب قسم مُضْمَر[4] أكَّد به الوعيد، وشدَّد به التهديد، وأوضح به ما أُنذِروه بعد إبهامه تفخيمًا[5] أي والله لَتَرَوُنّ الجحيم ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أي ثم لَتَرَوُنَّها رؤيةً حقيقية بالمشاهدة العينية قال في البحر: زاد التوكيد بقوله ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ نفيًا لتوهم المجاز في الرؤية الأولى[6] ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الوعظ والتوبيخ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ.

٢ - التكرار للتهديد والإنذار ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعطفه بـ﴿ ثُمَّ ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول العظيمُ لعبده: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل، ولكَوْنه أبلغَ نُزِّل منزلة المغايَرة فعطف بـ(ثُم)[7].

٣ - حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرءوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٧٢.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «التسهيل» ٤/ ٢١٦.

(٤) (ش): مُضْمَر: غير ظاهر.

(٥) «الألوسي» ٣٠/ ٢٢٥.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٥٠٨.

(٧) (ش): فالعطف يقتضي المغايَرة - أي الاختلاف - بين المعطوف والمعطوف عليه.

٤ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ لبيان شدة الهول.
٥ - الكناية ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ كنَّى عن الموت بزيارة القبور، والمراد حتى مُتُّم.
٦ - المطابقة بين ﴿ٱلنَّعِيمِ .. ٱلْجَحِيمَ ﴾.
٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الترمذي عن عبد الله بن الشخِّير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»[1].

لطيفة: روى مسلم عن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فقال ﷺ: « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟ ». قَالاَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: « وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا قُومُوا ». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلاَنٌ؟». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّى. فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ - عُنقُود - فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ - السِّكِّينَ - فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ ». فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ »[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): ورَوَاهُ مُسْلِمٌ.
(٢) (ش): (ذَهَبَ يَسْتَعْذِب لَنَا الْمَاء) أَيْ يَأْتِينَا بِمَاءٍ عَذْب. (إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ) أي هم في ذلك إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ». (الْعِذْق) الْغُصْن مِن النَّخْل. (الْحَلُوب): ذَات اللَّبَن.

سُورَةُ العَصْرِ ١٠٣ ٣

مكية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة العصر مكية، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره.

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان، وما فيه من أصناف العجائب، والعبر الدالة على قدرة الله وحكمته، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر) وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

التفسير: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي أُقْسِمُ بالدهر والزمان[1] لِمَا فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات، على أن الإنسان في خسران، لأنه يفضِّل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات قال ابن عباس: العصر هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب وقال قتادة: العصرُ هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة، والعظة البالغة[2].. وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان، فكل لحظةٍ تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل:

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الْأَجَلِ

قال القرطبي: أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالعصر وهو الدهر لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيه من الدلائل على الصانع، وقيل: هو قَسَمٌ بصلاة العصر؛ لأنها أفضل

(١) (ش): تقدم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يُقْسِمَ إِلاَّ بِالْخَالِقِ.
(٢) «البحر» ٨/ ٥٠٩.

الصلوات[١] فهؤلاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس[٢]، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضًا عن الشهوات العاجلات ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو الخير كله، من الإيمان، والتصديق، وعبادة الرحمن ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات، وترك المحرمات.. حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.. فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كَمَّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكَمَّل غيره بالنُّصح والإرشاد، فيكون قد جمَع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء.

٢ - التنكير للتعظيم ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ أي في خسرٍ عظيم ودمار شديد.

٣ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ لإبراز كمال العناية به.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ بعد قوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه أفرده بالذكر إشادة بفضيلة الصبر.

٥ - السجع غير المتكلف مثل ﴿وَٱلْعَصْرِ، بِٱلصَّبْرِ، خُسْرٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التَقَيَا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ثم يُسَلِّمُ أحدهما على الآخر[٣].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٧٩. (ش): قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. عن عَلِيّ بن أَبِي طَالِبٍ - رضى الله عنه - قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ؛ مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال، (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْفُ العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٢) (ش): خَسيس: حقير. نفيس: عظيم القيمة.

(٣) (ش): ورواه الطبراني، وصحَّح إسنادَه الألباني.

وهذا الأثر يدل على أن التسليم عند الافتراق، وقراءة سورة العصر قبل التفرُّق كانا من هدي الصحابة رضي الله عنهم. أما اشتمال دعاء كفارة المجلس على سورة العصر فلم يَرِدْ به دليل، وإنما ورد فضل قراءتها عند التلاقي من غير تحديد وقتٍ معيَّن لذلك.

سُورَةُ الهُمَزَةِ (١٠٤) (٩)

مكية وآياتها تسع

بين يدي السورة

* سورة الهمزة مكية، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس، ويأكلون أعراضهم، بالطعن والانتقاص والازدراء، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء.

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال، وتكديس الثروات، كأنهم مخلدون في هذه الحياة يظنون -لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم- أن المال سيخلدهم في الدنيا.

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، حيث يدخلون نارًا لا تخمد أبدًا، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر، لأنها الحطمة نار سقر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾

اللغة: ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهمَّاز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم، وبناءُ «فُعلَة» يدل على الاعتياد فلا يقال: لُعنَة وضُحكَة إلا للمُكْثِر المعتاد ﴿لُّمَزَةٍ﴾ اللمَّاز: الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجِب والعين ﴿الْحُطَمَةِ﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطّمه وتُهَشِّمه ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مُطبَقة مُغْلَقة من أوْصَد الباب إذا أغْلقه.

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم، أو يلمزهم سرًّا بعينه أو حاجبه قال المفسرون: نزلت السورة في «الأخنس بن شريق» لأنه كان كثير الوقيعة في الناس، يلمزهم ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والحكم عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1]، ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي الذي جمع مالًا كثيرًا وأحصاه، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات قال الطبري: أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حقَّ الله فيه ولكنه جمعه فأوْعَاه وحفظه[2] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلدًا في الدنيا

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٣، و«الرازي» ٣١/ ٩١. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٨٩. (ش): أَوْعَى مَالَهُ: وضعه فِي وِعَاءٍ حِرْصًا عَلَيْهِ، وضعه في خزائنه، ولم يؤدِّ حق الله فيه.

لا يموت ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾ أي ليرتدعْ عن هذا الظنّ فوالله ليُطرَحنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ تفخيمٌ وتهويلٌ لشأنها أي وما الذي أعلَمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب، ثم فسرها بقوله ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾ أي هي نار الله المسعَّرة بأمره تعالى وإرادته، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبدًا، وفي الحديث « أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ»[1] ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي التي يبلُغ ألمُها ووجعُها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي: وخصَّ الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] فهم إذًا أحياء في معنى الأموات[2] ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ أي إن جهنم مُطبَقة مغلَقةٌ عليهم، لا يدخل إليهم رَوْح ولا رَيْحان[3] ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي وهم مُوثَقُون[4] في سلاسل وأغلال، تُشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمد إيذانًا بالخلود إلى غير نهاية.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة ﴿هُمَزَةٖ ، لُّمَزَةٍ﴾ لأن بناء «فُعلة» يدل على أنها عادة مستمرة.

٢ - التنكير للتفخيم ﴿جَمَعَ مَالٗا﴾ أي مالًا كثيرًا لا يكاد يحصى.

٣ - التفخيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾؟ تهويلًا لشأن جهنم.

٤ - الجناس غير التام بين ﴿هُمَزَةٖ﴾ و ﴿لُّمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص.

٥ - توافق الفواصل مثل ﴿وَعَدَّدَهُۥ، أَخۡلَدَهُۥ، ٱلۡمُوقَدَةُ، مُّمَدَّدَةِۭ﴾ ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، قال: والأصح أنه موقوف. (ش): ضعَّفه الألباني.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٥.

(٣) (ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رَيْحان: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعُ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٤) (ش): في أكثر من طبعة: مَوْثُوقون. والمُثبَتُ هنا هو الصواب، يقال: أوثق الأسيرَ ونحْوَه، إيثاقًا، فهو مُوثِق، والمفعول مُوثَق: شدَّه في الوَثاق أي القيد بحبل أو سلسلة. ويقال: وثِق بالشّخصِ/ وثِق في الشّخص/ وثِق من الشخص، ثِقَةً ووُثوقًا ووَثاقةً، فهو واثِق، والمفعول مَوثُوق به: ائتمنه، صدّقه، وضع ثِقتَه به.

سُورَةُ الفِيلِ ١٠٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة «أصحاب الفيل» حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فرد الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل على جيش «أبرهة الأشرم» وجنوده أضعف مخلوقاته، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشد فتكًا وتدميرًا من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله[1]، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية وكان من أعظم الإرهاصات[2] الدالة على صدق نبوته ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ

اللغة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ جماعاتٍ بعضُها في إِثْر بعض. قال الجوهري: وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال: جاءت إِبلُك أبابيلَ أي فرقًا وجماعاتٍ قال الشاعر:

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ[3]

﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر ﴿كَعَصْفٍ﴾ ورق الزرع بعد الحصاد كالتين وقشر الحنطة، سمى عصفًا لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي ألم يبلُغْك يا محمد وتعلم علمًا يقينيًّا كأنه مشاهَدٌ بالعين، ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روى أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسةً بصنعاء وأراد

---

(١) (ش): وصف الرسول ﷺ بأنه سيد الكائنات، وصف فيه غلو وإطراء، وقد نهى النبي ﷺ عن مثل ذلك، فلو قال المؤلف: «سيد البشر» لكان ذلك صحيحًا مطابقًا لقوله - ﷺ -: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)، أما سيادته على الكائنات فهذا لا دليل عليه.

(٢) (ش): الإرْهاص: أَمرٌ خارق للعادة يُظهِره الله قبل بَعثة نبي، يكون من مُقَدِّمات نُبُوَّته.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٥١١. (ش): هدَّ الحائطَ: هدَمه بشدَّةِ صوتٍ. هدَّه الأمرُ: أوهنه وبلغ منه. الْجُرْد: خَيلٌ قصيرةُ شعْرِ الجلْد. سَالَتِ الْأَرْضُ بهم: أنهم كثير كأنهم السَّيْل، أي الطوفان، وهو ماء كثير يسيل، أو ماء المطر إذا تجمّع فوق الأرض وجرى مسرعًا غزيرًا.

أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلًا ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقارًا لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريبًا من مكة فرَّ أهلها الى الجبال، خوفًا من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيورًا سودًا، مع كل طائر ثلاثة أحجار، جحر في منقاره وحجران في رجليه، فرمَتْهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتَبِرين[1] قال أبو السعود: وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن يقال: «ألم تر ما فعل ربك» الخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئةٍ عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما رُوِي أن القصة وقعَت في السنة التي ولد فيها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام[2] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟! ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيرًا أتَتْهم جماعات، متتابعة بعضها في إثْر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلَتْه ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثَتْه[3]، فأهلكهم عن بكْرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدَفْع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه قال في البحر: كان صَرْفُ ذلك العدُوّ العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، إرهاصًا بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[4].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

---

(١) انظر «التفسير الكبير» ٣١/ ٩٦، و«تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٧. (ش): لا تكاد الروايات التأريخية لقصة أصحاب الفيل تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٧)].

(٢) «أبو السعود» ٥/ ٢٨٥. (ش): إن القرائن التأريخية المحتفَّة بالروايات التي تفيد مولد النبي ﷺ عام الفيل قوية، ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل، لأن قصة الفيل توطئةٌ وإرهاصٌ لظهوره، حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حَوْلٍ من العرب المشركين تعظيمًا لبيتِه. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٨)].

(٣) (ش): (رَاثَ): أَلْقَى غَائِطَهُ، أَيْ بِرَازَهُ، مَا تَطْرَحُهُ الأَمْعَاءُ مِنْ فَضَلاَتٍ.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٥١٢.

١ - الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ..﴾ الآية.

٢ - الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تشريف للنبي العظيم، وإشادةٌ بقدرة الله تعالى.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ٱلْفِيلِ، تَضْلِيلٍ، سِجِّيلٍ، أَبَابِيلَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ قُرَيْشٍ ١٠٦ ٤

مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان: في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشًا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار[1] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

التفسير: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ ومعنى ﴿لِإِيلَافِ﴾ الإلفُ والاعتياد يقال: أَلِفَ الرجُلُ الأمرَ إِلْفًا؛ وآلَفَه غيره إيلافًا. والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيرانُ بيت الله وسُكان حرمه، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، وردَّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليُوَحِّدوه ويشكروه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل، ربَّ هذا البيت العتيق، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة الجليلة التي خصَّهم بها قال المفسرون: وإنما دخلت الفاء ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه من أجل إلفهم الرحلتين، التي هي مِن أظهرِ نِعَمِه عليهم؛ لأنهم في بلادٍ لا زَرْع فيها ولا ضَرْع[2]، ولهذا قال بعده ﴿الَّذِي

(١) (ش): يَسار: غِنًى وثَرْوة، رخاء، سِعَة.

(٢) (ش): الضَّرْعُ: مَدَرُّ اللّبن في ذوات الظِّلْف والخُفِّ، وهو كالثّدي للمرأة، ضَرْع البقرة / الشَّاة. والظِلْف: ظفر مشقوق، للبقرة والشّاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. خُفّ البعير: ما يقابل =

أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي هـذا الإلـه الـذي أطعمهم بعد شـدة جـوع، وآمنهم بعـد شـدة خوف، فقد كانوا يسـافرون آمنين لا يتعـرض لهم أحد، ولا يُغيـر عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وذلـك ببركة دعـوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السـلام حيث قال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقولـه ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] أفـلا يجب على قريش أن يفردوا بالعبادة هذا الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟!

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الطبـاق بين ﴿ٱلشِّتَآءِ .. وَٱلصَّيْفِ﴾ وبين الجوع والإطعام ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

٢ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾.

٣ - تقديـم ما حقه التأخير ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ والأصل (لْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت لإِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتاء والصيف) فقدَّم الإيلاف تذكيرًا بالنعمة.

٤ - التنكيـر في لفظـة ﴿جُوعٍ﴾ ولفظة ﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شـدتهما أي جوع شـديد، وخوفٍ عظيم.

تنبيـه: قال الإمـام الفخر: إعلـم أنَّ الإنعام على قسـمين: أحدهما دفع ضـر وهو ما ذكره في سـورة الفيل، والثـاني: جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السـورة، ولما دفع الله عنهم الضر، وجلـب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشـكر ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ..﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»

❁ ❁ ❁ ❁

= القدم عند الإنسان والحافر عند الفرس. الزَّرْعُ وَالضَّرْعُ: الزِّرَاعَةُ وَالْمَاشِيَةُ. ما له زَرْع ولا ضَرْع: ليس له شيءٌ من أرض أو حيوان.

سُورَةُ المَاعُونِ ١٠٧ ٧

مكية وآياتها سبع

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما:

أ- الكافر الجاحد لنعم الله، المكذب بيوم الحساب والجزاء.

ب- المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله، بل يرائي في أعماله وصلاته.

* أما الفريق الأول: فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه[1] غلظة لا تأديبًا، ولا يفعلون الخير، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير، لا هم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه.

* وأما الفريق الثاني: فهم المنافقون، الغافلون عن صلاتهم، الذين لا يؤدونها في أوقاتها، والذين يقومون بها «صورة» لا «معنى» المراءون بأعمالهم وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك، وشنعت عليهم أعظم تشنيع، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ

اللغة: ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنفٍ وشدة يقال: دعَّه دعًّا أي دفَعه دفْعًا ومنه ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] ﴿يَحُضُّ﴾ الحَضُّ: الحَثُّ والترغيب ﴿سَاهُونَ﴾ جمع ساهٍ يقال: سها عن كذا يسهو سهوًا إذا تَركه عن غفلة ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ الشيء القليل، من المَعن وهو القلة تقول العرب: «مَا لَه مَعْنَةٌ ولا سَعْنَةٌ» أي ما لَه قليلٌ ولا كثيرٌ من المال، قال المبّرد والزجاج: الماعون كل ما فيه منفعة كالفأس والقِدْر والدَّلْو وغير ذلك.

التفسير: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟ استفهام للتعجيب والتشويق، أي: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة؟ هل عرفتَ من هو، وما أوصافه إن أردتَ تعرفه[2]؟ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحث على

(١) (ش): زجَر الشَّخصَ: طرده صائحًا به محتقرًا له.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: إن أردتَ أن تعرفه؟

إطعام المسكين قال أبو حيان: وفي قوله ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يُطعم إذا قدر، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحُضَّ غيرَه بُخلًا، فلأَنْ يترك هو ذلك فعلًا أوْلَى وأحرى[١] وقال الرازي: فإن قيل: لِمَ قال ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ولم يقل: ولا يُطعم المسكين؟ فالجواب أنه إذا منَع اليتيم حقه، فكيف يُطعم المسكين من مال نفسه؟ بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسة، ويدل على نهاية بخله، وقساوة قلبه، وخساسة طبعه[٢]، والحاصل أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، لأنه يكذّب بالقيامة، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للمصلين المنافقين، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم، يؤخرونها عن أوقاتها تهاونًا بها قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يَرْجُ لها ثوابًا، وإن تركها لم يخْشَ عليها عقابًا[٣] وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها[٤]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[٥] قال المفسرون: لمَّا قال تعالى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ بلفظة ﴿عَن ﴾ عُلم أنها في المنافقين، ولهذا قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال ﴿عَن صَلَاتِهِمْ ﴾ ولم يقل (في صلاتهم) لأنه لو قال (في صلاتهم) لكانت في المؤمنين، والمؤمنُ قد يسهو في صلاته، والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق سهو تركٍ وقلة التفات إليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولًا عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو، فظهر الفارق بين السَّهْوَيْن، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أي يُصَلُّون أمام الناس رياءً ليُقال: إنهم صلحاء، ويتخَشَّعون ليُقال: إنهم أتقياء، ويتصدقون ليُقال: إنهم كرماء، وهكذا سائر أعمالهم للشهرة والرياء ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة، من كل ما يستعان به كالإبرة، والفأس، والقِدْر، والملح، والماء وغيرها قال مجاهد: الماعون العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية وقال الطبري: أي يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته[٦]. وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة؛ فإن البخل بها نهاية البخل وهو مخل بالمروءة.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

---

(١) «البحر المحط» ٨/ ٥١٧.
(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ١٦٢.
(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢١١.
(٤) نفس المرجع السابق.
(٥) أخرجه ابن جرير. (ش): ضعفه الألباني.
(٦) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٢٠٣.

١ - الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟

٢ - الإيجاز بالحذف ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ حذف منه الشرط، أي: إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم، وهذا من أساليب البلاغة.

٣ - الذم والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

٤ - الجناس الناقص ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿سَاهُونَ، يُرَآءُونَ، ٱلْمَاعُونَ﴾ إلخ.

«انتهى تفسير سورة الماعون»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ الْكَوْثَرِ (١٠٨) (٣)

مكية وآيتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة الكوثر مكية، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها «نهر الكوثر» وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدى شكرًا لله.

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذكر الرسول مرفوع على المنائر والمنابر[1]، واسمه الشريف على لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾

اللغة: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد، والقدْر والخطر كوْثرًا قال الشاعر:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ ... وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا [2]

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ النَّحْر خاص بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شَانِئَكَ﴾ الشانِئ: المُبغِض من الشنآن بمعنى العداوة والبغُض ومنه ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ [المائدة: ٢] أي بُغضُهم ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ المُنقطِع عن كل خير، من البَتْر وهو القطعُ يقال: بترتُ الشيء بترًا قطَعْته، والسيف الباترُ: القاطعُ، ويقال للذي لا نسل له أبتر، لأنه انقطع نسبه، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي ﷺ[3].

التفسير: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريمًا لمقامه الرفيع وتشريفًا، أي: نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير «نهر الْكَوْثَر» وهو كما ثبت في الصحيح « نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ

---

(١) (ش): المَنارة: المِئذنة.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢١٦. (ش): العقيلة: الزَّوْجَة الْكَرِيمَة، وسيد الْقَوْم، والجمعُ عقائل.

(٣) (ش): الخطبة منسوبة لزياد بن أبيه، يُروَى أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما اختاره واليًا على البصرة، وكانت مَعقِلًا للخارجين على الخلافة الأموية ولهذا فقد كانت الفتن والثورات على بني أمية تنبع منها. فلما وصل زياد إلى البصرة صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»(١).

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَالَ «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ». فَقَرَأَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾». ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟». فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ - أي يُنتَزَع ويُقتَطَع منهم - فَأَقُولُ: «رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي». فَيَقُولُ: «مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ»(٢) قال أبو حيان: وذكر في الكوثر ستة وعشرون قولًا، والصحيحُ هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ». وعن ابن عباس: الكوثرُ: الخير الكثير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ أي فصلِّ لربك الذي أفاضَ عليك من الخير خالصًا لوجهه الكريم، وانْحَر الإبل التي هي خيار أموال العرب شكرًا له على ما أوْلَاك ربُّك(٣) من الخيرات والكرامات قال في التسهيل: كان المشركون يصلون مُكاءً وتَصدية(٤)، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه ﷺ: صلِّ لربك وحده، وانْحر لوجهه لا لغيره، فيكون ذلك أمرًا بالتوحيد والإخلاص ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أي إن مُبغِضَك يا محمد هو المنقطع عن كل خير قال المفسرون: لما مات «القاسم» ابن النبي ﷺ قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجلٌ أبتر لا عقب له -أي لا نسله له- فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة(٥)، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد، لأنه مبتور من رحمة الله، أي مقطوع عنها، ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مَقْرونٌ بذكر الله تعالى،

---

(١) رواه الترمذي. (ش): صححه الألباني.

(٢) رواه مسلم والترمذي.

(٣) (ش): أوْلَاك ربُّك: أعطاك ربك.

(٤) (ش): أي صفيرًا وتصفيقًا.

(٥) (ش): موضوع، رواه ابنُ سعد في «الطبقات الكبرى». وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ: «أَلَا تَرَى هَذَا الصُّنْبُورَ الْمُنْبَتِرَ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السِّدَانَةِ، وَأَهْلُ السِّقَايَةِ!». قَالَ: «أَنْتُمْ خَيْرٌ». فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الْكَوْثَر:٣] وَنَزَلَ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥٢، ٥١]. (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ وَابْنُ جَرِيرٍ، وصحّحه الألباني). (الصُّنْبُورُ): الرَّجُلُ الفَرْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ بِلَا أَهْلٍ وعَقِبٍ وَنَاصِرٍ. الْمُنْبَتِرَ: الْمُنْقَطِعُ.

والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعُه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجِزها فيما يلي:

١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك.

٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إِنَّآ﴾ لأن أصلها إِنَّ ونحن.

٣ - صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك لأن الوعد لما كان محققًا عبَّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع.

٤ - المبالغة في لفظة الكوثر.

٥ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾.

٦ - إفادة الحصر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾.

٧ - المطابقة بين أول السورة وآخرها بين ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ وَٱلۡأَبۡتَرُ﴾ فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان مُنزل القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»

❁ ❁ ❁ ❁

سُورَةُ الكَافِرُونَ ١٠٩ ٦

مكية وآياتها ست

بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة فنزلت السورة [1] تقطع أطماع الكافرين، وتفصل النزاع بين الفريقين: أهل الإيمان، وعبدة الأوثان، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

التفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها، فأنا بريءٌ من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تُغني عن عابدها شيئًا. قال المفسرون: إن قريشًا طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فقال. معاذ الله أن نشرك بالله شيئًا. فقالوا: فاستلِم بعض آلهتنا نصَدِّقْك ونعبدْ إلهك، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رءُوسهم فقرأها عليهم فأيِسُوا منه [2] وآذوه وآذوا أصحابه وفي قوله ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونسبتهم إلى الكفر وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك دليلٌ على أنه محروسٌ من عند الله، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحقَّ هو الله ربُّ العالمين، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن، وعبادة الهوى والأوثان!! ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في

---

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما».

(٢) انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٢٥٠، و«تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٢٥. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد، وذكر بعضه السيوطي في «الدر المنثور» ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبدًا ما عشتُ، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبد ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم، ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار، قال المفسرون: معنى الجملتين الأوليين: الاختلاف التام في المعبود، فإله المشركين الأوثان، وإله محمد الرحمن، ومعنى الجملتين الأخريين: الاختلاف التام في العبادة، كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الخطاب بالوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة.

٢ - طباق السلب ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فالأول نَفْيٌ والثاني إثبات.

٣ - المقابلة بين كل من الجملتين الأوليين ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نَفْيٌ لعبادة الأصنام في الحالِ والاستقبال[1] وهو من المحسنات البديعية.

٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): أي في الحاضر والمستقبل.

سُورَةُ النَّصْرِ ١١٠ ٣

مدنية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة النصر مدنية، وهي تتحدث عن «فتح مكة» الذي عز به المسلمون، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وتقلمت أظافر الشرك والضلال، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله، واضمحلت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه، من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

التفسير: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين. والمعنى: إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك، وفتح عليك مكة أم القرى قال المفسرون: الإخبارُ بفتح مكة قبل وقوعه إخبارٌ بالغيب، فهو من أعلام النبوَّة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعاتٍ جماعاتٍ من غير حربٍ ولا قتال، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائعة قال ابن كثير: إنَّ أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرٌ للإسلام[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فسبّح ربك وعظمه مُتَلَبِّسًا بحمده على هذه النعم، واشكره على ما أوْلَاك[2] من النصر على الأعداء، وفَتْح البلاد، وإسلام العباد ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأُمتك ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - ذِكْر الخاص بعد العام ﴿نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه (فتح مكة) تعظيمًا لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٨٧، وقال القرطبي: و«إذا» بمعنى «قد» أي قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح.

(٢) (ش): أوْلَاك: أعطاك.

٢ - إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب.

٣ - دين الله هو الإسلام ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ وأضافه إليه تشريفًا وتعظيمًا، كبَيْت الله وناقة الله.

٤ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ لأن صيغة «فعال» للمبالغة.

تنبيه: هذه السورة الكريمة فيها نَعْيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة (التوديع) وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي»[١]، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] الآية. فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يومًا[٢]. وروى الإمام البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟» فَقَالَ عُمَرُ: «إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ». فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ. فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾؟». فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا بأن نَحْمَد اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا». وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: «أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟». فَقُلْتُ: «لا». قَالَ: «فَمَا تَقُولُ؟». قُلْتُ: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ ». فَقَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ»[٣].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي»، فَضَحِكَتْ، فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي» فَضَحِكْتُ» (رواه البيهقي والدارمي بإسناد صحيح). وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله - ﷺ -: «نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي» بأنه مقبوض في تلك السنَة. (رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر).

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٣. (ش): رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ الْوَدَاعُ، فَأَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ الْقَصْوَاءِ فَرحلت، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَذَكَرَ خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ (رواه الْبَزَّارُ وَالْبَيْهَقِيُّ بإسنادٍ ضعيف).

(٣) «جمع الفوائد وأعذب الموارد» ٢/ ٢٨٥.

سُورَةُ المَسَدِ ١١١ ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة المسد مكية، وتسمى سورة «اللهب»، وسورة «تبت»، وقد تحدثت عن هلاك «أبي لهب» عدو الله ورسوله، الذي كان شديد العداء لرسول الله ﷺ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته، ويصد الناس عن الإيمان به، وقد توعدته السورة في الآخرة بنار موقدة يصلاها ويشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك، واختصتها بلون من العذاب شديد، هو ما يكون حول عنقها من حبل من ليف تجذب به في النار، زيادة في التنكيل والدمار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

اللغة: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكت، والتباب: الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] وقال الشاعر: «فَتَبًّا لِلَّذِي صَنَعُوا»... ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات اشتعال وتلهُّب ﴿جِيدِهَا﴾ عُنقها قال امرؤ القيس:

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ[1]

﴿مَّسَدٍ﴾ ليف قال الواحدي: المسد في كلام العرب: الفَتْل، يقال: مسد الحبل يمسده مسدًا إذا أجاد فَتْله، وكلُّ شيء فُتِل من الليف والخُوص فهو مسد[2].

سببُ النّزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ». لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ». قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[3].. السورة.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٤١. (ش): الرِّيم: الظبْيُ الأبيض الخالص البياض. لَيْسَ بِفَاحِشٍ: ليس بكريهِ المنظر. (ش): خُوص: جمع خُوصة: ورق النَّخل وما شابهه.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٣.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٠. (ش): رواه البخاري.

ب- عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُحَارِبِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَأَنَا فِي بِيَاعَةٍ لِي فَمَرَّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ - مؤخّر القدم - وَكَعْبَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوا هَذَا فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟، فَقِيلَ: غُلَامٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قُلْتُ: فَمَنْ هذَا الذي يَتْبَعُهُ، يَرْمِيهِ بالْحِجَارَةِ؟. قِيلَ: هذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ[1].

التفسير: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلكت يد ذلك الشقي ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاءٌ، والثاني إخبارٌ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك قال المفسرون: التباب هو الخسار المُفضِي إلى الهلاك[2]، والمراد من اليد صاحبُها، على عادة العرب من التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العُزى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كلٌّ منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه، وفي يدها فهْر - قطعة من الحجارة -، فلما دنَت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم تر إلاّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهْجُوني، فوالله لو وجَدته لضربت بهذا الحجر فَاهُ، ثم أنشدت تقول: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله: أما تراها رأتْك؟ قال: ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني»[3]، وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون: مذممًا بدل «محمد» وكان يقول صلوات الله عليه: «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذممًا وأنا محمد»!؟[4] قال الخازن: فإن قلت: لم كناه وفي التكنية

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٦. (ش): رواه ابنُ حبان والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. (سُوقُ ذِي الْمَجَازِ): مَوْضِعٌ بِمِنًى كَانَتْ بِهِ سُوقٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ: سُوقٌ كَانَتْ لَهُمْ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ عَرَفَةَ. وَالْفَرْسَخ: مِقْيَاسٌ لِلطُولِ يُقَدَّرُ بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ (٤٨٢٧ مِتْرًا)، أَوْ أَرْبَعَة كِيلُو مِتْرَاتٍ.

(٢) (ش): أي المُؤدّي إلى الهلاك.

(٣) (ش): عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) [المسد: ١] أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي». وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَقَرَأَ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي». فَقَالَ: «لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ». فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا»((رَوَاهُ الْحَاكِمُ وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (وَلْوَلَةٌ): الْوَلْوَلَةُ: الدُّعَاء بِالْوَيْلِ. (فِهْرٌ): حَجَرٌ. (هَجَانِي): ذَمَّنِي وَعَدَّدَ مَعَايِبِي. قلَى فلانًا: أبغَضَه واشتدّ كُرْهُه له فهجره.

(٤) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٤، و«الألوسي» ٣٠/ ٢٦٤. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ» رواه البخاري.

تشريف وتكرمة؟ فالجواب من وجوه: أحدهما: أنه كان مشتهرًا بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف. الثاني: أنه كان اسمه «عبد العزى» فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك لأن العزَّى صنم فلم تُضَف العبودية إلى صنم. الثالث: أنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنارُ ذاتُ لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديرًا بأن يُذكَر بها[١] ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي لم يُفِدْه مالُه الذي جمعه، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه قال ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من الأولاد، فإن ولد الرجل من كسبه.. روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فنزلت[٢] قال الألوسي: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء «عُتبة» و «متعب» و «عُتيبة» وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حنينًا والطائف، وأما «عُتيبة» فلم يسلم، وكانت «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رُقية» عند أخيه عُتبة، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، فطلقاهما ولما أراد «عُتَيبة» بالتصغير الخروج إلى الشام مع أبيه قال: «لآتِيَنَّ محمدًا وأُوذِيَنَّه» فأتاه فقال: «يا محمد إنّي كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى»، ثم تفَل أمام النبي ﷺ وطلَّق ابنته «أم كلثوم» فغضب ﷺ ودعا عليه فقال: «اللهم سلِّطْ عليه كلبًا من كلابك» فافترسه الأسد[٣]، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبب ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن[٤] ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل نارًا حامية، ذات اشتعال وتوَقُّد عظيم، وهي نار جهنم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي وستدخل معه نار جهنم، امرأته العوراء «أم جميل» التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وتُوقِد بينهم نار العداوة والبغضاء قال أبو السعود: كانت تحمل حزمة من الشوك والحَسَك[٥] فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ لإيذائه[٦] وقال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم[٧] ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد فُتِل فَتْلًا شديدًا، تُعذَّب به يوم

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٣١٧. (ش): أي لم ينتفعْ به.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٠. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ أَبِي نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ لَهَبُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ» فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ فَجَاءَ الْأَسَدُ فَانْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِهِ (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٢. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

(٥) (ش): حَسَك: جمع حَسَكَة: نبات عُشبي برّيّ شائك.

(٦) «أبو السعود» ٥/ ١٩٢.

(٧) «الألوسي» ٣٠/ ٢٦٣.

القيامة قال مجاهد: هو طوقٌ من حديد وقال ابن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعُزَّى لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلًا في جيدها من مسد النار[١].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس المرسل ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب.

٢ - الجناس بين ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار.

٣ - الكنية للتصغير والتحقير ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره، كأبي جهل.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر: « وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ»[٢].

٥ - النصب على الشتم والذم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي أخُصّ بالذم حمالةَ الحطب[٣].

٦ - توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات وهو من المحسِّنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) (ش): يَعْنِي: لَمْ تَمْشِ بِالنَّمَائِمِ، وَجَعَلَ الْحَطَبَ رَطْبًا لِيَدُلَّ عَلَى التَّدْخِينِ، الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرِّ.

(٣) (ش): أي نصب كلمة ﴿حَمَّالَةَ﴾ فما قبلها مرفوع.

سُورَةُ الإِخْلَاصِ ١١٢ ٤

مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

اللغة: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات قال الشاعر:

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[1]

﴿كُفُوًا﴾ الكُفُوءُ: النظير والشبيه قال أبو عبيدة: كُفُوٌّ وَكُفْءٌ وَكِفَاءٌ كلها بمعنى واحد وهو المِثْل والنظير[2].

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربَّك، أمِن ذهب هو، أم مِن فضة، أم مِن زبرجد، أم مِن ياقوت؟! فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ..﴾ السورة[3].

التفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: إن ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث «الآب، والابن، وروح القدس» ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة قال في

---

(١) «البحر المحط» ٨/ ٥٢٧. (ش): بَكَّرَ: بادر، عَجِل وأَسْرع. نعَى فلانًا: أذاع خبرَ موتِه.

(٢) انظر «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٥.

(٣) (ش): ضعيف جدًّا، رواه الهروي في «ذم الكلام». وعن أُبي بن كعب -رضي الله عنه-: أن المشركين قالوا لرسول الله -ﷺ-: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ فالصمد: الّذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله -عزّ وجلّ- لا يموت ولا يورث، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء. (حسن، رواه أحمد والترمذي).

التسهيل: واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة في حقه تعالى: الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفيٌ للعدد. والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له والثالث: أنه واحد لا ينقَسم ولا يتبعَّض، والمراد بالسورة نَفْيُ الشريك ردًّا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جدًا، وأوضحها أربعة براهين: الأول؛ قوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]؟ وهذا دليل الخلق والإيجاد فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحد منها شريكًا له والثاني: قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو دليل الإحكام والإبداع الثالث: قوله تعالى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهو دليل القهر والغلبة. الرابع: قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] وهو دليل التنازع والاستعلاء[1] ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناءه عن الخلق فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام، يحتاج إليه الخلق وهو مُستَغْنٍ عن العالمين قال الألوسي: الصَّمد السيدُ الذي ليس فوقه أحد، الذي يُصمَدُ إليه أي يلجأ إليه الناسُ في حوائجهم وأمورهم[2] ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، منزَّه عن النقائص قال المفسرون: في الآية رَدٌّ على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود في قولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] والنصارى[3] في قولهم ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] وكمشركي العرب في زعمهم أن (الملائكة بنات الله) فرَدَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]؟! ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي ولم يولد من أبٍ ولا أُم، لأن كل مولود حادث، والله تعالى قديم أزلي، فلا يصح أن يكون مولودًا ولا أن يكون له والد، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأولُ الذي لا ابتداءَ لوجوده، القديمُ الذي كان ولم يكن معه شيء غيره[4] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي وليس له جل وعلا مثيلٌ، ولا

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٢٣، وقد ذكر في «التسهيل» هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة، وما ذكر بين المعترضين مثل: دليل الخلق والإيجاد، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامنا.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٧٣.

(٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم «الآب، والابن، وروح قدس» وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٤) (ش): قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

نظير، ولا شبيه أحد في خلقه، لا من ذاته، ولا من صفاته، ولا من أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قال ابن كثير: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدَّس وتنزَّه، وفي الحديث القدسي «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فأما تكذيبه إياي فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»(١).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿قُلْ هُوَ﴾ للتعظيم والتفخيم.

٢ - تعريف الطرفين ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ لإفادة التخصيص.

٣ - الجناس الناقص ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

٤ - التجريد فإن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفي الكفء، والولد، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الإيضاح والبيان.

٥ - السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

لطيفَة: هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

فَائِدَة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ»(٢) قال العلماء: وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف، فإن علوم القرآن ثلاثة: «توحيد، وأحكام، وقصص» وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار، وقيل: إن ذلك في الثواب، أي: لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

---

(١) (ش): رواه البخاري.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعًا. (ش): صححه الألباني.

سُورَةُ الفَلَقِ ١١٣ ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجئوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوذ نفسه بهما.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

اللغة: ﴿الْفَلَقِ﴾ الفَلَق: الصبح تقول العرب: هو أبْيَنُ من فلَق الصبح، والفِلْق بالكسر الداهية والأمر العجب، وأصله من فلقْتُ الشيء أي شقَقْته، فكل ما انفلق من شيء من حيوان، وحب، ونوى فهو فلق، ومنه «فالق الإصباح» قال ذو الرمة:

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ

أي انجلى الصبحُ عن وجهه ﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق: الليل إذا اشتد ظلامه، والغسق أول ظلمة الليل يقال: غسق الليل أي أظلم قال الشاعر:

إِنَّ هَـذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا وَاشْتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرَقَا[1]

﴿وَقَبَ﴾ دخل بظلامه، والوُقُوب: الدخول ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النفْث: شَبَهُ النفْخ دون تَفْلٍ بالريق، فإذا كان معه ريقٌ فهو التَّفْل قال عنترة:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أُنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ[2]

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي قل يا محمد ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام قال ابن عباس: ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبحُ كقوله تعالى ﴿فَالِقُ

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٥٧. (ش): كانت العرب تزعُم أن الرجل إذا طعَن آخر فنفَث عليه الطاعنُ ورَقاه، أن المطعون يبرأ مِن طعنته.

﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦][1] وفي أمثال العرب: هو أَبْيَنُ من فلَق الصبح قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مُؤْذٍ خلَقه الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي ومن شر الليل إذ أظلمَ واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل: «الليلُ أخفَى للوَيْل»[2] قال الرازي: وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارقُ والمكار، ويقع الحريق، ويقِلّ فيه الغَوْث[3] ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن، أي: ينفخن فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال في البحر: وسبب نزول المعوذتين قصة «لَبِيدِ بن الأعْصَم» الذي سحر رسول الله ﷺ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ - قشر الطلع - طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروزٍ بالإبَر، فأُنْزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نُشِطَ من عقال[4]

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٤.

(٢) (ش): أي افعل ما تريد ليلاً، فإنه أستَرُ لسِرِّك.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٣١/ ١٩٥. (ش): أَجَمَة الأسد: مأْواه في الأدغال. المُكابِر: الطاغِي، مُتجاوِز الحدّ. غاثَه، غَوْثًا / أغاثَه، إغاثةً: أعانه ونصره، قدّم له المساعدةَ.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٥٣٠. (ش): بهذا السياق الذي فيه ذِكْر الإبر المغروزة ضعيف جدًّا، رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ولكن قصة سحر لبيد بن أعصم للنبي ﷺ ثابتة في البخاري ومسلم. وكون هذه القصة سببًا لنزول المعوِّذتين ثابتٌ أيضًا في مُسنَد عبد بن حميد بسند صحيح عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: سَحَرَ النَّبِيَّ -ﷺ- رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ. قَالَ: فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَقَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ». قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ «وَتَقْرَأَ» آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ -ﷺ- كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ. فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ». كان لَبِيدُ بنُ أَعْصَم غلامًا يهوديًّا يخدم النبي ﷺ. (مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ) المشط معروف، والمُشَاطَة هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه. (جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ) وعاء للقاح النخل، وغشاؤه - قِشْره - إذا جف. كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ: يقال: أَنْشَطْتُ الحبلَ: حَلَلْتُه، والعِقال: ما يُشَدُّ به البعير مِن الحبل. (فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ. وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ): أي إن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل ولم يُشْعِره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئًا؛ فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه.

تنبيه: السحر الذي أصابه ﷺ لم يكن ليمس عقله الشريف ولا يؤثر في تبليغ الرسالة بل كان عارضًا كعوارض الأمراض المختلفة التي تصيب الصالح والطالح والكبير والصغير، والنبي ﷺ مشرع لذا تحدث هذه =